



دراسات في رسائل النور

في آفاق النور

أديب إبراهيم الدباغ


4

من ملامح
التربية السلوكية عند النورسي

قدم هذا البحث إلى الملتقى الدولي" التربية السلوكية عند النورسي " الذي عقدته كلية الآداب بجامعة القاضي عياض بالمغرب في 14-16 /1/ 2003/

1- مدخل إلى فلسفة "النورسي" التربوية

لو شئنا أنْ نلخص فلسفة "النورسي" التي تُوَجِّهُ منطلقاته في "التربية السلوكية" للأفراد والجماعات لقلنا إنَّها كلمتان اثنتان لا يعدوهما، وهما "الجمال والجلال"، فالجمال عنده هو لُبُّ الحقيقة الإنسانية، ولُبُّ كُلِّ الحقائق في الوجود.

فجمال الحقيقة الإنسانية لا بُدَّ له من مِرْآةٍ ينعكس عليها ويتجلَّى فيها، والسلوك البشري في الفكر والحياة هو المرآة التي تعكس من صور هذا الجمال على قدْر استشعار الإنسان بقيمته الجمالية النفيسة في هذا العالم، ومن حيثُ كَوْنُه سيدَ الكائنات، وأعلاها قدْراً، وأعظمها قدرةً على ترجمة إشارات الجمال في سويداء الروح إلى سلوكٍ حياتي، وشعورٍ وجداني،

ومنهج ذهني يمارس من خلاله شؤونه المعيشية والحياتية، ويُقَوِّمُ على ضوئه ما يعرض له من أفكار ومذاهب، فيحكم لها أو يحكم عليها، في إطارٍ من رُؤى ذوقية سامية المنشأ، رفيعة المنبع، يتناول برهافتها المعاني والمباني، ويتعامل بموجبها مع كليات الأفكار وجزئياتها وتشكلاتها في بُنَى الإنسان الحضارية والمدنية، ونشاطاته الفنية والأدبية والفلسفية.

وَقدْ رَأيتُ تجليات هذا الجمال منعكساً على السلوك الإيماني العملي لقراء رسائل النور ولطلبتها، رأيتُه رأي العين، ولَمَسْتُهُ لمسَ اليد، حيثما تكررت زياراتي لهم في بيوتهم ومدارسهم ومكاتبهم، وأماكن أعمالهم، فإذا واحدهم كأنَّه جَمَالٌ قُرْآنيٌّ مسكوبٌ في قالبٍ بشريٍّ، ومرآة صقيلة شفّافة تعكس من صور الذوق والخُلقُ والأدب ما يكاد يكون نادر الوجود في هذا العصر المجدب الكسيح، وليس هذا رأياً رأيْتُهُ أنا وحدي، بل هو رأي جمهرة من كبار الأساتذة والمربّين مِمَّنْ تهيأتْ لهم فرصُ رؤية "طلبة النور" على الطبيعة في أماكن وجودهم وتجمعاتهم، فأعربوا عن الرأيّ نَفْسِهِ.

2- الجمال والجلال..!

والجمال والجلال صنوان لا يفترقان، فكُلُّ جمالٍ هو جلالٌ في الوقت نفسه، وكُلُّ جلالٍ هو جمال في الزمن ذاته، ولو شئتَ لقلتَ: إنَّ الجلال هو العظمة والكبرياء اللتان يحتجبُ وراءهما الجمال، وهو هالةٌ من المهابة والحشمة تحيط بالجمال فتحفظهُ وتَصُونَهُ من أنْ تطاله الأيادي الطامعة

والعيون المسمومة, والإيمان بمسكوباته الجمالية والجلالية في الأرواح والقلوب هو الذي يصنع المؤمنين الذين يُشَكِّلون المعنى الجلالي الذي يحيط بالإيمان ويصونه مِمَّنْ يريد به الأذى، وينوي به الشرّ وقد قامت الحضارة الإسلامية في الماضي ولن تستأنف قيامها في المستقبل إلاّ على هذين العنصرين، الجمال والجلال، جمال في القلب والروح والفكر يَعْقُبُه جلالٌ مُجَسَّمٌ في رجولة الرجال، وفي عظمة البناء والإعمار.

وما أفْرَزَتْهُ هذه الحضارة من بطولات إنسانية في مختلف مناحي الحياة، وما تركته من هياكل البناء والمعمار في أرجاء العالم الإسلامي ينبئ عن ذلك ويشير إليه، وقد ظلَّ القرآن والسيف في الرايات المرفوفة فوق رؤوس الجموع رمزاً من رموز هذه الحضارة للجمال والجلال.

والفكر التربوي الذي تحول لدى طلبة "النورسي" إلى سلوكٍ يمارسه "الطالب" في حياته اليومية ويكاد يكون علامة عليه وحدَه من بين الناس، هو مزيج من روح الجمال وروح الجلال، وقد لمستُ ذلك بنفسي حيث وجدتُ لدى طالب النور وداعةً تكاد تكون طفولية، ولكن ليس عن ضعفٍ بل عن قوة إيمانية تمتلئ بها نفسه، وطالعتني منه رحمة تكاد تذوب رقةً ليس عن هوانٍ نفسي بل عن عِزّةٍ قعساء لا تتطامنُ إلاّ لربِّ العالمين، ورأيتُ إشفاقاً دونه إشفاقُ الأمِّ على وليدها نابعاً من

طاقة رجولية ترى في الإشفاق على المتجانفين عن طريق الله تعالى معنىً من معاني الإنسانية الإيمانية.

و "طالب النور" هيّنٌ سهلٌ موطأٌ الأكناف يضع خَدَّه على التراب تواضعاً إنْ أخطأ في حق أحد أو أساء إلى أحد، إلاّ أنّه لا يفعل ذلك بانكسارٍ نفسي بل بشعورٍ من تواضع العِزّة التي تستعصي على أي معنىً من معاني الإذلال والخنوع.

و"النورسي" الأستاذ والقدوة، هذا الرجل الذي لم يكن له مأوى يُؤويه على ظهر الأرض سوى المنافي والسجون والزنـزانات، وعلى الرغم من أهوال العذاب الذي كان يَصُبُّهُ عليه سَجَّانوه، إلاّ أنَّ قلبه المفعم بالإشفاق والرحمة كان يمنعه من رفع يديه والدعاء على جلاّديهِ، وعندما فعل ذلك ذات مَرّةٍ فتوجَّهَ بقلبه الكسير إلى الله تعالى رافعاً يديه بالدعاء على واحد من سجّانيه مِمَّنْ أفرط غاية الإفراط في إيذائه وتعذيبه، ولم تكد شفتاه تتحركان بالدعاء حتى رأى من كوةِ زنـزانته صبياً لهذا السجَّان يلعب في شرفة المنـزل المطلّ على باحة السجن ببراءة طفولية عذبة، فإذا به يُنـزِلُ يديه ويعدل عن الدعاء إشفاقاً ورحمةً بهذا الصبي الذي لم يُرِدْ أن يعكر صفو براءته بالحزن على والده الذي ربما كان سيتأذّى بدعائه عليه.

3- تربية الوجدان.

إنَّ صياغة الوجدان البشري وتربيته هو من أصعب مهمَّات قادة الفكر والدعوة في كُلِّ الأوقات. وقد سعى "النورسي" - على ضوء التربية الإيمانية التي أرادها لتلامذته- أن يسمو

بوجدان "طالب النور" إلى آفاق الجمال والجلال في النفس والكون والحياة، واستطاع من خلال "رسائل النور" أن يملأ خيال هذا الوجدان بصور باهرة من جمال العالم الأبدي حيث استطاع أن يعكس على العالم الخارجي أعظم الصفحات في تاريخ الفتح الإيماني العتيد على هذه الأرض ،وذلك باستثارة عنصر الرجولة فيه لمواجهة التحديات والمخاطر مهما كان نوعها.

إنَّ قهر الخوف وتركه وراء الأذن، وتحت القدم، هو من أولويات ما يعرف به "طالب النور" لأنّ جلال الشجاعة هو ينبوع جمال الرحمة والصدق والشرف والكرم والمروءة، هكذا كان "النورسي" وهكذا أراد أن يربي تلامذته.

وأودُّ أنْ أُنبِّهَ إلى أنَّ الإمام "النورسي" رحمه الله، كان يوصي طلبته دائماً وفي كل مناسبة، بعدم التعلق بشخصه الفاني، وكان يؤكد على أنَّ "رسائل النور" التي كتبها هي شخصه المعنوي الذي يمكن أن يزوروه ويحاوروه في كل وقت إذا أحبُّوا ذلك، فَمَنْ يُحبُّ إلتقاءَهُ فليَلْتقِه عبر "رسائل النور".

والذين لم يلتقوا "النورسي" في حياته إلتقوه بعد وفاته رحمه الله من خلال "رسائل النور" فهذه الرسائل هي التي ربَّتهم وارتقت بسلوكياتهم الإسلامية المثالية التي أشرنا إلى بعض ملامحها في الصفحات الماضية من هذا البحث، وإني شخصياً أعرف جَمَّاً غفيراً من شباب "النور" انصبغت حياتهم

بالصبغة السلوكية نفسها التي كان قد انصبغ بها الجيل الأول من الذين إلتقوا "النورسي" وعاصروه، وهذا يؤكد وجهة نظرنا بأنَّ المربي الحقيقي والأساس هو الرسائل وليس غيرها.

وعلى قدر علمي لم أعرف كتاباً كان له من التأثير السلوكي التربوي في قرائه كما وجدت ذلك في أولئك المنكبّين على قراءة "الرسائل" من طلاب "النور" في هذا العصر، وهذه شهادة أسجلها على نفسي وأرجو الله تعالى ألاَّ أكون حانثاً فيها، لأنَّها نتيجة المشاهدة والمخالطة والمعاملة.

4- مع الكون وجهاً لوجه..!

ومن أجل أن يحفز التفكر الإيماني في أذهان تلامذته يتقدمهم "النورسي" ليوقفهم على الكونيات وجهاً لوجه من دون واسطة من الكلمات التي قد تتحول أحياناً إلى حاجز فكري يحجز الإنسان عن الكون مسبباً له شيئاً من الجمود العقلي والكسل الروحي الذي يريد أن ينأى بتلامذته عنهما، فأشَدُّ الأشياء بداهةً جديرة بالاهتمام من لدن "طالب الإيمان" فهي تنطوي على الكثير من موجبات الدهشة والعجب. فالأشياء الكونية ذات سلك واحد يربط بينها جميعاً، فالشيء يفضي إلى الشيء، والشيء طريق لكل شيء وعلى صلة بكل شيء، فالذين ينكفئون تحت ظل الكلمات قد يفقدون مع الزمن الاستمتاع الناشط الإيجابي، والفرح الاستكشافي من خلال معالجة المعطيات الكونية بالحسيِّات مباشرةً ومن غير

واسطة، فتاريخ الكون يمكن قراءته في جزء من أجزائه دون مشقة، وجلال الربوبية، وجمال الألوهية يمكن مشاهدتهما في أية جزئية من جزئياته، والنظام والقصد والعلم والإرادة في الخلق والإيجاد تتكشف بكل سهولة عند الفحص والتدقيق في الأشياء.

فإثارة حماس العقل عند "طالب الإيمان" في تفكره بالأشياء وفي استكناه أسرارها وخفاياها من مستلزمات تكوين العقل العلمي الاستكشافي والاختراعي، وهي في الوقت نفسه من مهمات السلوك التربوي العملي عند "النورسي".

يحدّثُ أحد "طلاب الإيمان" قائلاً:

"كان الأستاذ يرتقي التلال التي تشرف على مدينة "إسبارطة" ليشاهدَ من فوقها مناظر الفطرة، ومشاهد الطبيعة، وكانت الطريق مكسوةً بأشجار الفواكه وبخاصة "العنب". فيمسك الأستاذ بعنقودٍ منها –دون أن يقطعه- وَيَعُدُّ حبَّاته مبيناً لنا ما فيه من بدائع الصنعة الإلهية والإتقان الربَّاني فيقول: انظروا وتأملوا في حلويات القدرة الإلهية هذه .. فكان يعلمنا هكذا كيف نفكر في مخلوقات الله المبثوثة في معرض الله.. وهكذا كنا نتلقى دروساً إيمانية في التدبر وِفْقَ منهج القراءة في كتاب الكون المفتوح أمامنا.

وذات يوم وقف على مقبرة وقال: "إنَّ شواهد هذه القبور الحجرية تذكّرنا بالآخرة، وتنذرنا. فهي كالمعلم الحي لنا. ألا ترون أن هذه الأحجار ترشدنا إلى دروس بليغة بلسان حالها،

وكأنها تقول لنا: أنتم أيضاً قادمون إلى هنا.. لا مناص. هكذا كان يعلمنا كيفية التفكير في الأمور كلها".[1]

5- السلوك والخلود.

إنَّ السلوك البشري ذو المنظور الروحي المستهدي بفكرة الخلود الأبدي في عالمٍ أخروي. يبقى القاعدة الثابتة والمقيمة في أغوار النفس يعود إليها الإنسان المسلم مهما طوحَتْ به أحداث الزمن في دروب الحياة وشعابها ليستأنف دورة جديدة من عملية تزكية النفس وبنائها على ثوابت الإيمان، وبذلك يبقى المسلم في شدٍّ وجداني متيقظ لدواعي الانحرافات عن الثوابت إياها، فلا يسترخي ولا يستنيم، أو هكذا ينبغي أنْ يكون طوال حياته.

كما أنَّ الائتلاف بين الفضيلة والطبيعة، وبين الإيمان والكون، هو واحد من توكيدات "النورسي" التربوية على طلابه، ففي الإنسان تكمن روح الطبيعة، أو بعبارة أخرى روح "الفطرة" بطهرها ونقائها.

ومن أجل هذا الطهر والنقاء الذي يُرادُ "لطالب الإيمان" أن يتحلَّى به عَمَدَ "النورسي" إلى تعزيز قوى الحواس في طلابه، وفتح نوافذ الروح على عالمي الغيب والشهادة باعتبارهما وجهين لعملية خلاَّقية واحدة، هذه الخلاَّقية التي يحثُّ "النورسي" طلابه على الغوص في معانيها وأسرارها لينعم

1- المصدر نفسه ص 97-98

الطالب بعد ذلك بفيضٍ من حُبٍّ إلهيّ أبدي يجعله مركز جذبٍ وانجذاب للقلوب النـزيهة الطاهرة.

والآلام المركوزة في طريق هذه التزكية للأفراد والجماعات هي مصفاة عظيمة تصفي النفوس وتنقيها من بقايا أدرانها أو أخطائها، فالآلام رغم قسوتها هي جمال لأنها طريق النفوس إلى الصفاء والنقاء، والصفاء والنقاء هو الجمال كل الجمال، وما من ألمٍ أو حزنٍ يصيب المؤمن إلاّ وهو خيرٌ له، لأنه يزيد في خصب روحه وقوتها، فالسجون والزنـزانات والمنافي هي مدارس يوسفية كما يصفها "النورسي" لطلابه فكما كان السجن ليوسف عليه السلام طريقاً إلى إرتقاءاته الروحية والدنيوية معاً، كذلك هي عند "النورسي" وعند طلابه. وعلى ضوء الآية الكريمة (فلبثَ في السجن بضع سنين) (يوسف:42) يقول النورسي:

"نفهم من أسرار هذه الآية الكريمة أن يوسف عليه السلام هو قدوة المسجونين ورائدهم. فيصبح السجن اذاً نوعاً من (مدرسة يوسفية). وحيث إن عدداً غفيراً من طلاب النور قد دخلوا هذه المدرسة مرتين، لذا ينبغي لهم أن يتدارسوا ويُدرّسوا قسماً من خلاصة المسائل الإيمانية التي أثبتتها رسائل النور ولها مساس بالسجن، للاسترشاد بها ولتقويم الأخلاق والسلوك في هذه المدرسة المفتوحة لتلقي التربية".

ويقول كذلك:

"أما إذا صرفنا ساعة واحدة في أداء الصلوات الخمس، فكل ساعة من ساعات الابتلاء وأوقات المحن تتحول إلى يوم من العبادة، فكأن الساعات الفانية قد اكتسبت ـ ببركة هذه الساعة ـ صفة الخلود، وأصبحت في حكم ساعات أبدية باقية.. فتنـزاح عن القلب سحب اليأس ويتبدد عن الروح ظلام القنوط.. وتصبح هذه الساعة من العبادة كفّارة لبعض ما ارتُكب من أخطاء وذنوب، ربما كانت السبب في الدخول إلى السجن.. وبذلك نكتشف حكمة ابتلائنا بالسجن ويغدو السجن مدرسة نتلقى فيها الدروس النافعة.. ونجد فيه مع اخوتنا في المصيبة والبلاء العزاء والسلوان".[2]

6- إخفاق التربويات غير الإيمانية

والبلقع الرهيب، والجدبُ المُمْحِلُ في روح الإنسان ووجدانه، وجفاف ينابيع الإيمان في قلبه، هو موضع نظر "النورسي" وأعظم اهتماماته الفكرية من إنسان هذا الزمان، حيث يبدو واضحاً إفلاس التربويات غير الإيمانية في تنشئة النفوس العظيمة الراغبة باستيعاب المعارف الإلهية بجانب ما تزخر به الأذهان من أكداس من المعلومات لم تُجْدِ في تحصين الفرد من مغريات الجريمة وتعاطي المخدرات، وفضائح المال والجنس والانتحار، والسقوط المخيف في الغلظة والقسوة، وممارسات الابتزاز والقهر على الأفراد

2 الشعاعات ص 252

والجماعات دون وازع من ضميرٍ أو خُلُقٍ. وقد تَحَدَّى "النورسي" مرةً رجال الشرطة والأمن ومكافحة الإجرام في بلاده أن يكونوا قد سجّلوا على أي طالب من طلاب النور البالغ عددهم مئات الألوف ومنذ عشرات السنين مخالفة تخدش أمنَ البلاد، أو جنحة أو جريمة أمكنَ تجريم واحد منهم بسببها ويمضي قائلاً:

أليس هذا دليلاً كافياً على أن مسلكنا التربوي الإيماني هو أقوم المسالك. وإذا كانت الدولة تريد تجفيف منابع الجريمة في البلاد فما عليها إلاَّ أن تسمح لنا بحرية العمل لكي نسلّمَ لها البلاد –في يوم ما- نظيفةً وخاليةً من الجريمة والفساد.

ثم إذا كان لكل حقيقة حياة قائمة بذاتها وهي لا تموت أبداً حتى عندما لا يكون لها وجود في حياة الناس وفي أذهانهم وسلوكياتهم، فكذلك حقائق الإيمان فهي تبقى حيةً عندما تُقْفرُ العقول والقلوب منها، إلاَّ أنها تظلُّ تمارس الحياة في الخفايا المطوية من النفوس والأكوان وفي فضاءات القرآن الكريم، وكل ما تحتاجه لتظهر على السطح شيءٌ من التنبيه والتذكير، وحتى عندما تصمت لأي سبب من الأسباب بعضَ الوقت إلاَّ أن صمتها يظل همساً يحاور أسماع القلوب والأرواح شاءت ذلك أم أبَتْ، ولا بدَّ أن تنتبه في لحظة ما وتبدأ الفهم وتذعن للتذكير فتبادل هذا الصامتَ المتكلمَ الحديث والحوار والفهم والإدراك.

غير أنَّ الناس وبخاصة شباب هذا العصر مشغولون بقضايا بعيدة عن نقطة المركز في دائرة وجودهم، بينما ينبغي أن تكون أولويات انشغالاتهم هي التركيز على هذه النقطة لأنها هي الأساس في بناء هذا الوجود وفي تكويناته النفسية والفكرية، فلياليهم وأيامهم سكرى بلذاذاتٍ لا تشبع، وعذابات من الحرمان لا تنتهي، وبشهواتٍ نَهَّاشةٍ لا تنفكُّ تنهش القلوب والعقول ولا تتركها إلا بقايا قلوب محطمةٍ، وعقول ممزقة، لأنَّ كُلَّ لذة تورث ألماً إذا هي زالت –كما يقول النورسي- وكل فرح يورث حزناً إذا مضى وانقضى، وكُلُّ وصال فهو إلى فراق، وكل اجتماع فهو إلى افتراق، فالمطلوب إذن لذة لا تزول، وفرح مقيم، ووصال دائم، واجتماع بالأحباب تحت سماء البقاء والخلود، وهذا ما لا يمكن أن يحظى به المرء إلاَّ في الإيمان والتربية الإيمانية التي تهيؤه لهذا الكسب العظيم الذي هو مطمح كل عاقل أريب.

ولا جدال في أنَّ إنسان هذا الزمان لا يستطيع مهما حاول أنْ يغمض عينيه، ويسُدَّ أذنيه عما يجري حوله من أحداث في هذا العالم الذي غدت الأمكنة فيه –بفضل التقنيات الحديثة- مكاناً واحداً، والأزمنة زماناً واحداً. وصار العالم الوسيع قرية صغيرة كما يقولون يمكن أن يجوبه الإنسان خلال ساعات، فلا بدّ لهذا الإنسان الواقع تحت ضغوط هذه التقنيات المذهلة أن يهتمَّ بالعالم ويتابع أحداثه وَيُكّونَ رأياً حولها. إلا أنَّ أحداث "القلب والنفس" وما يخوضانه من تجارب. وما يتقلبان فيه من

أحوال، وما يعتورهما من انقلابات وتقلبات، وما يحتربان من أجله، ويسعيان لبنائه، ينبغي أن يكون لهما سبق الاهتمام والتعرّف والفهم والإدراك، وأن تكون لهما الأولويات من التفكر قبل الخوض في مجريات العالم من حولهما، فانصباب الإنسان وانكبابه ينبغي أن يبدأ بخويصة نفسه، وبالسويداء من روحه، ثم ينتقل من هناك نحو الأوسع من الدوائر ثم الأوسع حتى يصل إلى دائرة العالم من حوله، وهذا هو الأساس في البناء الفكري والنفسي لطالب النور كما أراده "النورسي" وبهذا الخصوص يقول:

"إن رأس مال العمر قليل، ورحلة العمر هنا قصيرة، بينما الواجبات الضرورية والمهمات التي كُلّفنا القيام بها كثيرة، وهذه الواجبات هي كالدوائر المتداخلة المتحدة المركز حول الإنسان:

فابتداء من دائرة القلب والمعدة والجسد والبيت والمحلة والمدينة والبلاد والكرة الأرضية والبشرية وانتهاء إلى دائرة الأحياء قاطبة والعالم اجمع كلها دوائر متداخلة بعضها في البعض الآخر، فكل إنسان له نوع من الوظيفة في كل دائرة من تلك الدوائر. ولكن اعظم الواجبات وأهمها، بل أدومها بالنسبة له هي في اصغر تلك الدوائر وأقربها إليه، بينما اصغر الواجبات واقلها شأناً ودواماً هي في اعظم تلك الدوائر وأبعدها عنه. فقياساً على هذا: يمكن أن تتناسب الوظائف والواجبات تناسباً عكسياً مع سعة الدائرة، أي كلما صغرت

الدائرة - وقربت - عَظمت الوظيفة، وكلما كبرت الدائرة - وبَعُدت - قلت أهمية الوظيفة.. ولكن لما كانت الدائرة العظمى فاتنة جذابة، فهي تشغل الإنسان بأمور غير ضرورية له، وتصرف فكره إلى أعمال لا تعنيه بشيء، حتى تجعله يهمل واجباته الضرورية في الدائرة الصغيرة القريبة منه، فيهدر - عندئذ - راس مال عمره، ويضيّع حياته سدى".[3]

7- القلب البشري بين المجاز والحقيقة

إنَّ القلب البشري هو ينبوع كل العواطف والأشواق والمحبَّة والوَجْد والحب، فيظلُّ يَضُخُّ من هذه المعاني فيوضاً هائلة مع كل نبضة من نبضاته، ومع كل دقة من دَقّاته على أبواب الحياة وجدران الوجود.

أرأيتَ أنَّ الله تعالى الذي خلق الإنسان ليُعْرَفَ ويُذْكَر ويُشْكَر ويُعْبَدَ ثمَّ لا يخلق فيه الأداة التي بها يعرفه ويذكره ويشكره ويعبده، أو لا يخلق فيه المرآة التي تتجلّى عليه صفاته الجلالية والجمالية لكي يزداد به شغفاً، ويهيم به محبةً وعِشقاً، ويمتلئ له شكراً وتعبُّداً.

إلاَّ أنَّ القلب المسكين الذي مُنِحَ حرية الاختيار قد يَضِلُّ الطريق، وينحرف في سيره عن الغاية والهدف، فيتعلق بالضلال، وينجذب للأطياف، ويغرق في المجاز، ويشغف بالاستعارة، بينما الحق والحقيقة تظلُّ في متناول إدراكه، وهي

---

3 الشعاعات ص 252

أقرب إليه من حبل الوريد، وأقرب مِمَّا يتوهمه من أوهام ويسبح فيه من خيالات فيجره ذلك إلى الاستغراق في أهواء حسيَّةٍ جسدية تبدد فيه من الطاقات الخارقة ما كان يمكن أن يدير أجنحة أعظم أشواقه إلى صاحب الجلال والجمال الحقيقي، الذي كُلُّ جمال وجلال في هذا العالم إنما هو ظلٌّ من ظلال جماله، وقبسة من نور جلاله.

أما مراهقو السلوك الأرعن مِمَّنْ لم يحظوا بتربية إيمانية رشيدة، فشأنهم دائماً التحويم حول خضر الدِمّنَ، والتلهي كالأطفال بالدُّمى، والوقوف على الرسوم والأطلال، والركون إلى الظلال، واصطحاب أشباح بلا أرواح، يجذبهم إلى ذلك ما في الهبوط السلوكي من سحر أسود وما في اقتراف الفسق من غباء أحمق، ولأنَّ هذه الممارسات تخالف الفِطَرَ السليمة، فأنها تعقب ردودَ أفعال نفسية حزينة مؤلمة، وشعوراً بالحِطّةِ والانحطاط وهذا هو الهلاك الروحي الذي حذَّر منه "النورسي" وعزا إليه ما نشاهده في السجون والمستشفيات والخمارات من مآسٍ إنسانية تفطّر القلب، وتملأه إشفاقاً وحزناً.

إنَّ الرجل كُلَّ الرجل هو الذي يتجاوز هذه المراهقات السلوكية الفجَّة، ويعلو فوقها، ويرتفع بظمأ قلبه وأشواق روحه إلى منابع الجمال الحق، والجلال الصدق، ليروي ظمأ القلب، ويطفئ لهب الروح، فيسمو به الإيمان إلى بحار هذه المنابع ليَرِدَهَا ثمَّ يَصْدُرُ عنها وقد أطفأ غلّةً وَبَلَّ أُواماً..

يقول "النورسي" محذراً:

"إن الحب المحرم، أو العشق لغير وجه الحق، فيه من الآلام ما ينغّص اللذة الجزئية فيه، منها الشعور بألم الغيرة والحسد، ومنها ألم الفراق عن المعشوق، ومنها ألم عدم مقابلة المحبة بالمثل.. وغيرها كثير من المنغصات التي تجعل تلك اللذة الجزئية بحكم عسل مسموم.

فإن كنت تريد أن تفهم أن سوء تصرّف الشباب وإسرافهم في أمرهم يسبب فيهم من الأمراض ما يسوقهم إلى المستشفيات أو المقابر..

وإن كنت تريد أن تفهم أن غرور الشباب وطيشهم يدفعهم إلى السجون.

وإن كنت تريد أن تفهم أن ما يصيبهم من آلام معنوية وهموم نفسية - من الخواء الروحي والجوع القلبي والفراغ - يسوقهم إلى أبواب الحانات والملاهي.. نعم إن كنت تريد أن تتحقق من هذا، فاسأل المستشفيات والسجون والخمارات والمقابر، فستسمع حتما أنات وآهات، وبكاء مريراً، وحسرات الندم، وأصوات الأسى والأسف، يطلقها - على الأغلب - شباب أشقياء، تلقوا الصفعات الموجعة والضربات الأليمة لخروجهم عمّا أباح الله لهم من الطيبات بدافع نزواتهم

وإسرافهم و سيّء أعمالهم، وارتكابهم المحرمات، وانسياقهم وراء اللذات المشؤومة".[4]

8- قوى النّفس وطاقاتها

والإمام "النورسي" ومن خلال قراءاته المُعَمَّقة للنفس البشرية على ضوء كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، يرى أنَّ قوى النّفس وطاقاتها الهائلة في الإعمار والتخريب، وفي السلب والإيجاب حبيسة "إنيَّةِ" الإنسان أو "أناه" كما يعبّر هو نفسه، فـ "أنا" الإنسان عالمٌ فسيحٌ ذو أُفقٍ واسع، تسبح في أجوائه صور الوجود، وظلال الأكوان، فانعدام "أنا" الإنسان أو غيابه لأيّ سبب من الأسباب يعني نوعاً من أنواع انعدام العالم قُبَالَتَهُ، لأنه هو الذي يرسم صورة العالم على صفحة وجدانه كما تتراءى له، أو كما يُحِسُّها ويشعر بها.

ويرى "النورسي" كذلك أنَّ "أنا" إذا ما نَفَذَ ببصيرته عميقاً في كيان نفسه، فأنَّ سِرّ الخلق والإيجاد الإلهيين سيتوضحان أمامه، قياساً على ما عنده من نازع إستشرافيٍّ خَلاَّق يعمل دوماً على خلق دنياه وعالمه الخاص به. وفي معرض حديثه عن عَالَم "أنا" الموّار بالأعاجيب يقول "النورسي": "وهكذا..فقد اندرجت في "أنا" آلاف الأحوال والصفات والمشاعر المنطوية على آلاف الأسرار المغلقة التي تستطيع أن تدلَّ وتبين –إلى حدٍّ ما- الصفات الإلهية الحكيمة كلها".[5]

---

4 الشعاعات ص 255-256

5 أنظر رسالة "أنا".

ولا بُدَّ من اختراق طبقات "النفس" وحتى لو كان ذلك عبرَ طوفان من الحقارات والتفاهات المتراكمة لكي نصل إلى العمق النهائي الذي يستقُّر فيه النّازع الإلهي الذي فُطِرَت عليه.

وهذا النَّازع الإلهي الفطري هو الذي جعل "النورسي" ينبش عنه بقلمه طبقات النفس لكي يصل إليه، ويطلعه على السطح ويكون مُعْتَمَدَهُ في فكره الدعوي والتربوي على حدٍّ سواء.

9- الدين والعلم..

لقد حذّر "النورسي" الإنسان المسلم من أنَّ سقوطاً مريعاً يمكن أن ينتظره حينما ينساق مع التيار المستغرب، فيرى في قوة العلوم قوةً تفوق قوة الدين. ونبَّهَ إلى أنَّ هذه العلوم لا يمكن أن تكون دائماً هي المرآة المطلوبة لكي يرى المسلم روحه فيها، فيقع في الشَرَكِ نفسه الذي وقع فيه الإنسان الغربي حين ظنَّ أنه قادرٌ على اتخاذ "العلم" ديناً يقوم مقام الدين ذي المصدر الإلهي.

و"النورسي" لا ينكر بل يؤكد على أن هذه العلوم ترسل كثيراً من الأحيان بروقاً والتماعات ذات مستويات عالية تومئ إلى الأصل الإلهي للإنسان، إلاّ أنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تشكل البديل عن شفافية الدين وروحانيته والطمأنينة التي يبثها في النفس، وحين تنكرت المدنية الغربية للدين انقلبت إلى وحشٍ كاسرٍ بلا قلب ولا ضمير ينهش في

أوصال الإنسانية في كل مكان ، الأمر الذي جعل "النورسي" يعبر عنها بأبشع التعابير حيث قال: "لقد قَاءَتْ هذه المدنيةُ وحشيةً فاقت جميع وحشيات القرون السابقة".[6]

10- أنواع النفوس

ذكر القرآن الكريم ثلاثة أنواع من النفوس يتراوح بينها الإنسان، أدناها "النفس الأمارة بالسوء" ثمَّ "النفس اللوامة" والأرقى وهي "النفس المطمئنة".

وقد حذر "النورسي" طلبته من "النفس الأمارة" تحذيراً شديداً، ووصفها في رسائله بأنها نفس زئبقية لا تلبث على حال واحدة، وتتشكل بأشكال مختلفة، تطل برأسها إذا وجدت من صاحبها فرصة ضعف، وتتوارى إذا خافت، تلبس لكل حال من أحوال صاحبها الملبوس الذي يناسبه، وربما أفسدت على المطيعين طاعاتهم وعلى المتعبدين عباداتهم، وعلى المخلصين إخلاصهم، وهي بارعة في المناورة والمراوغة والخداع، فصارت بذلك مبعث كل شر. يقول "النورسي" محذراً:

"وهكذا.. يا إخوتي..

تأملوا جيداً وراقبوا أنفسكم لئلا تخدعكم نفوسكم الأمارة بالسوء من زاوية قياس الآخرين بالنفس ومن حيث سوء الظن

---

6 سيرة ذاتية، ص 140

بالآخرين، ولا تساوركم الشبهة بأن "رسائل النور" لا تربي طلابها".[7]

أما "النفس اللوامة" وهي الأرقى في درجات النفوس، إلاّ أنها الأكثر تعباً، والأشدُّ معاناةً والأرهف شعوراً، والأعنف توتراً، والأعظم تألماً، والأعمق حزناً، فهي لوّامةٌ عَتّابة، نَقّادة عيّابة, لا تعرف السكينة، لأنها ضمير الوجدان، والعصب الذي يهزه الغلط، ويوتره الانحراف، تلوم صاحبها إذا أخطأ، وتذكره إذا نسي، وتعنفه إذا اعوجَّ، وتوخزه إذا سكن إلى باطل، وتنذره إذا مارس فسقاً أو أتى فجوراً. وتكبح جماحه، وتلجم أهْواءهُ وهي في صراع دائم مع نفسه الثانية "الأمارة بالسوء" حين تطلُّ برأسها من مخبئها بين تارة وأخرى، فالحرب بينهما سجال، كرٌّ وفرٌّ هزيمة وانتصار، وهي البوصلة الهادية إلى الطريق المستقيم، ولبيان أهمية هذه النفس ربط جلَّ وعلا في قَسَمه بينها وبين يوم القيامة، فقال: (لا أقسمُ بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة:1،2)

فبين يوم القيامة بأهواله الرهيبة وبين "النفس اللوامة" سلكٌ نورانيٌّ خفي ينقل صراخ هذه النفس إلى مسامع "القيامة.. أملاً في شمول صاحبها بالرحمة الإلهية.

وإذا ما قُدِّر لمعدن "النفس اللوامة" أن يتصفّى في بودقة الاختبار من الشوائب والأخباث، وأن يُنَقّى سرُّها، ويتطهر

---

7 الشعاعات/ 389

لُبُّها، وتخرج من جحيم "النفس الأمارة بالسوء" سالمة مبرأة، صارت نفساً مطمئنة، ودرجت لتأخذ مكانها في صفوف المرضيين المطمئنين، وصارت هي المعينة بخطابه جلَّ وعلا: (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)(الفجر:27).

....

إلاَّ أنَّ هذه النفوس التي استعرضنا بعضاً من سماتها وملامحها في صدر هذا الكلام لا يفصل إحداها عن الأخرى في الإنسان حَدٌّ فاصلٌ، أو حاجزٌ لا يمكن تجاوزه واختراقه، فـ "النفس الأمارة بالسوء" موجودة حاضرة مع كل نفس، تتوارى أحياناً إلى حدّ الظنّ بأنها لم يعد لها وجود، ثم لا تلبث حتى تخرج رأسها من بعض ثغورٍ ضعيفة غفل الإنسان عن تحصينها جيداً، وقد تضعف وتهزل وربما دخلتْ مرحلة الاحتضار إلاَّ أنها لا تموت، وسرعان ما تتراءى وكأنها قد استردّت قوتها وعافيتها حتى أن أكابر الأولياء والأصفياء والبررة الأتقياء يستغيثون بالله منها، ويرجون عونه تعالى ليظهروا عليها، وإلى هذا المعنى يكتب "النورسي" إلى طلبته موجهاً:

"إخوتي الأعزاء الأوفياء:

لقد أخطر إلى قلبي أن أبين لكم حقيقة لئلا يتهم بعضكم بعضاً بالأنانية وعدم الوفاء لقد رأيتُ –يوماً- من وليٍّ عظيم قد ترك الأنانية وانْمَحْت نفسه الأمَّارةُ، رأيتُ منه يشكو بشدّةٍ من

النفس الأمَّارة. فحرتُ في الأمر. ثمَّ عَرَفْتُ يقيناً إنه لأجل إدامة المجاهدة المثابة عليها إلى نهاية العمر تتحول أعتدة النفس الأمارة بموتها إلى العروق والمشاعر.

وهكذا يشكو أولئك الأولياء العظام من هذا العدو الثاني الوارث للنفس الأمَّارة".

ويمضي "النورسي" قائلاً:

"بل إنَّ بعضاً مِمَّنْ هم في أعلى المقامات يعدون أنفسهم أكثر الناس ضعفاً وعجزاً وإفلاساً لأنهم لا يستشعرون إحساناً إلهياً أنعم عليهم، مما يدل على أن الكشف والكرامة والأذواق والأنوار التي تعتبر في نظر العوام مدار الكمالات لا تكون قطعاً محكاً ولا مداراً لتلك المقامات والقيمة المعنوية".[8]

11- حياة النورسي وانعكاساتها على حياة طلبته

عاش "النورسي" طوال حياته عميقاً في كل شيء، ولم تَسْتَهوِهِ أبداً المُسطَّحاتُ في الدين والفكر والحياة. إنه جوهري في أموره كلها، سبّار أغوار، حمّال أثقال، غوّاص أعماق ، ما جافى أحداً مجافاته للنفوس الباهتة، والعقول الساهية، والأرواح الفارغة.

إنه يتساءل دائماً: هذه الحياة التي أُعطيناها، ماذا نفعل بها..؟ وكيف نصرفها..؟! إنه لا يكره شيئاً كراهيته للكسل والفراغ لأنهما سبب لكل انحلال وتدهور، إنَّ زيادة الإدراك

---

8 الشعاعات 389

والتفتّح على الحياة هي إحدى مهمات عقله، وهي نفسها المهمة التي حَثَّ طلابه على السّموِ إليها، إنَّ لسان حال رسائله يقول لهم: كونوا على أعلى مستوى من التوتر الروحي، إربطوا أنفسكم بأعمدة الوجود، تحركوا بحركته، واحيوا بحياته، انتقلوا من كونكم مستهلكين لحياتكم إلى مستثمرين لها، ومن أن تعيشوا إلى أن تحيوا، ما زمان مضى لم تكونوا موجودين فيه ولا زمان سيمضي لا تكونون موجودين فيه.. ليبعثكم النفير القرآني من قبور أنفسكم قبل أن يبعثكم من قبور أجسادكم.. إنَّه الإسراء من حرم الإسلام إلى أقصى الإيمان، ومن هناك إلى سدرة منتهى الإحسان.[9]

***

9 في إحدى اللقاءات مع طلاب النور، قال واحدٌ من المعنيين برسائل النور: أرى أن الأستاذ استطاع أن ينقلكم بسرعة عجيبة ومن خلال رسائله من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان، ثم مقام الإحسان. فأنتم ترون الله تعالى فيما تأخذون وتعطون، وتأتون وتتركون، فإن لم تكونوا تروه فأنه يراكم، وهذا هو مقام الإحسان كما ورد في الحديث الشريف.

فلسفة الدُّعاء
عند النورسي

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد إمام الحامدين الشاكرين، الذي أترع الكون بضراعاته، وأطرب آذان الوجود بمَوَاجيده، وعلى آله وصحبه أجمعين.

1- النورسي رجل الدعوة والدعاء

باستثناء الإمام "النورسي" رحمه الله لم أقرأ لأحد من أئِمّة المسلمين في العصر الحديث وعلى مدى القرن المنصرم مواجيد وتضرعات بالكمّ والكيفِ اللّذين نلتقيهما في مجلدات "رسائل النور" فقد كُتبَتْ هذه الرسائل بقلمٍ نورانيٍ مغموسٍ بدَمِ قلبٍ تواقٍ دائم الذكر والدّعاء والتضرع.

فقارئ "رسائل النور" بمجلداتها العشرة يخلص في خاتمة المطاف إلى أنها نوع عظيم من الذكر والثناء على الله تعالى. وليس هذا بمستغرب إذا ما علمنا أنّ هذه الرسائل إنما هي مرايا عاكسة لشؤون القرآن ومقاصده، والقرآن الكريم كله

كتاب دعوة وتوحيد وذكر وثناء، والثناء على الله تعالى دعاء أخلص الدعاء.

روى أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني بسنده إلى الحسين بن حسن المروزي أنه قال:

سألتُ سفيان بن عيينة فقلتُ: يا أبا محمد ما تفسير قول النبي ρ وعلى آله: "كان من اكثر دعاء الأنبياء: "لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير" وإنما هو ذكرٌ وليس فيه من الدعاء شيء، فقال لي: أعرفتَ حديثَ مالك بن حارث: يقول الله جلَّ ثناؤه: "إذا شغل عبدي ثناؤه عليَّ عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين" قلتُ: نعم، أنت حدثتنيه عن منصور عن مالك عن الحارث. قال: فهذا تفسير ذلك، ثم قال: أما علمتَ ما قاله أُميَّة بن أبي الصلت حين خرج إلى ابن جدعان يطلب نائله وفضله..؟ قلتُ: لا أدري. قال: قال:

"أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حياؤكَ إنَّ شيمتك الحياءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً   كفاهُ من تعرّضهِ الثناءُ"

ثم قال سفيان: فهذا مخلوق يُنْسَبُ إلى الجود، فقيل له يكفينا من مسألتك أن نثني عليك حتى نأتي على حاجتنا، فكيف بالخالق؟"[10] .

---

10 أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني 8 /343. وانظر "جامع الثناء على الله" تأليف يوسف بن إسماعيل النبهاني 1372هـ1953م ص 726.

والدعاءُ مُخُّ العبادة كما ورد في الحديث الشريف[11]، فلا تتجلّى العبودية بأصدق ما تكون وأخلصَ إلاّ من خلال الدّعاء والضراعة، بل العبودية في حقيقتها ليست أكثر من هتفة دعاء من أعماق الروح، وصرخة ضراعة من قلبٍ مكلومٍ حزينٍ.

فعلى جناح الدعاء والتضرع تصعد الماهية الإنسانية إلى سماوات الرحمة، عاريةً من كل زيف، نقيةً من كل شائبة، فقيرةً من كل حول، مجرّدة من كل قوة، في الذُّل غارفةً، في المَسْكنَةِ غائصة، على أعتاب صاحب العزّة والجبروت متمرغة، فإذا تلطّف تعالى بالنظر إليها أجاب سؤلها، ومسح حزنها وجبر كسرها، وفرّج كربها.

فالله تعالى قد يبتلي عباده أحياناً بالبأساء والضراء رحمة بهم وإشفاقاً عليهم، لكي يحوش الشاردين منهم إلى نفسه، ويقود النائين عنه إليه، ويذكّر الناسين، ويلفت انتباه الغافلين. يقول جلَّ شأنه: (**ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلّهم يتضرعون. فلولا إذْ جاءهم بأسُنا تضرّعوا ولكن قسَتْ قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون. فلمّا نَسُوا ما ذكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون.فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله ربِّ العالمين**)(الأنعام: 41-45)

---

11 انظر الأحاديث الواردة بهذا المعنى إلى: الترمذي، الدعاء30، تفسير القرآن3؛ إبن ماجة، الدعاء؛ المسند 267/4،76،71

فالهتاف المنبعث من روحٍ معجونٍ بالآلام، والدّعاء المتفطّر من قلبٍ مكلومٍ حزين، هو الذي أنجى يونس عليه السلام من بطن الحوت، وحوّلَ نار النمرود على إبراهيم عليه السلام برداً وسلاماً، وهو الذي سلّم موسى عليه السلام من فرعون، وهو الذي دَقَّ أبواب السماء، وهزَّ قوائم العرش واستنـزل غَيْرَةَ الحق تعالى لينصر نبيّه وحبيبه ρ في واقعة "بدر الكبرى".

فالدّعاء والتضرع من سنن الأنبياء عليهم السلام، وهي من أعظم سنن رسولنا الحبيب ρ، فلم يعرف تاريخ الأنبياء نبياً كمحمد ρ في شدة ولوعه بالدعاء، وَعِظَم حبّه بالثناء على الله تعالى، ومزيد شغفه بحمده تعالى في سرّاء أموره وضرائها وفي كل أحواله.

2- أهمية الدعاء في أوقات الشدائد والمحن

وعلى الرغم من الأهمية الكبرى للدعاء والتضرع في تقوية الجانب الإيماني والسلوكي للإنسان المسلم، إلاّ أن الاهتمام به ظلَّ طوال القرن المنصرم غائباً عن أقلام رجال الفكر والدعوة، ولم يحتل من أساسيات اهتماماتهم إلاّ مساحات ضيقة لا تكاد تذكر.. وهذا أمر يثير الاستغراب حقاً، فعلى الرغم من حاجة المسلمين الملحة لاستمداد القوة والعون من الله تعالى بالدُّعاء والتضرع لتقوية عزائمهم وتنشيط مقاومتهم للمحن والشدائد التي واجهتهم خلال القرن المنصرم، إلاّ أن ذلك لم يكن حافزاً للإلتفات إلى هذا الجانب المهم من إخلاص

العبودية لله، وإخلاص الدعاء والضراعة إليه.. ولا يذهَبنّ الوهم بأحد فيظنّ أننا ندعو المسلمين إلى مواجهة التحديات بالدعاء والتضرع ولا شيء غيرهما، فهذا ما لا يمكن أن يقول به عاقل، وما نريد قوله: إنّه لا بد من الدعاء والتضرع واللجوء إلى الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب لا قبلها، كما هي سنته ρ في كلّ ما واجهه من التحديات في طريق الدعوة. [12]

ثم إنَّ إحياء سنّة من سنن رسولنا الحبيب صلوات الله وسلامه عليه تكاد تُنْسَى في هذا العصر ولا يُلْتَفَتُ إليها إلاّ نادراً، واجبٌ إيماني يؤجر عليه صاحبه أعظم الأجر، فالدعاء والتضرع من أوكد سننه، وإحياؤها وتجديدها عمل إيماني كبير الأهمية.

وقد أسهم "النورسي" إلى حد كبير في إحياء هذه السنةً الشريفة، وذلك بتوجهه كليةً إلى رحمه ربّه، وبزيادة تضرعاته إليه، ورجاء العون منه، والاستناد إليه في أموره كلها، فأسكرتْ أناشيدُ وَجْدِهِ الآذان، وسحرتْ القلوب، وغدا بحقٍّ غِرِّ يْدَ الناطقين بالقرآن، وَهَزَارَ المنشدين بآلاء الرحمن، فصارَ قدوةً لتلامذته فهم يفتتحون كل يوم جديد من أيام حياتهم بمنهج تضرعي إلى الله، ليُعبئوا جهازهم الروحي بالطاقة اللآزمة لتوليد القوى الإيمانية التي يحتاجونها وهم يمارسون

12 الأخذ بالأسباب دعاء فعلي كما يرى "النورسي" .

أعمالهم اليومية، وعن سرّ من أسرار مناجاته يحدثنا أحد تلامذته قائلاً:

"كنتُ أذهبُ إلى غرفة الأستاذ منذ الصباح الباكر لأشعل مدفأته، ففي أحد الأيام والبرد شديد ذهبتُ إليه قبل الفجر بنحو ساعتين دون أن أدري، فرأيتهُ جالساً فوق سجّادته يتعبّد على ضوء شمعة صغيرة، كان يدعو بصوت رقيق حزين، ويرجو الله ويتضرع إليه، فوقفتُ أنتظره ساعةً ونصف الساعة دون أن أحسَّ بالتعب، وأنا أرتجف من البرد، متسمراً في مكاني ارقبُ هذا المنظر المهيب وأنا في غاية من التأثر والانفعال، وحانتْ منه التفاتة فرآني قائماً خلفه، فقال: أخي أمين: لقد أخطأتَ خطأً كبيراً أُقسمُ بالله بأنّ لي أوقاتاً بيني وبين الله تعالى لا أقبل أن يدخل فيها عليَّ أحد، لا إنس ولا جان ولا حتىّ ملك، فأنت مخطئ جداً، فلا تكرر هذا العمل مرةً ثانية، لا تأتِ مثل هذا الوقت المبكر بل انتظر حتى يبزغ الفجر.

فقلتُ: أرجو عفوك يا أستاذي فأنا المقصر، لقد كان ضوء القمر سبباً في خطأي فأتيت مبكراً، فلن آتيك بعد اليوم قبل الفجر.." [13].

3 ـ النورسي بين الرجاء والخوف

و"النورسي" روح عظيم غائص في فيض من الحب الإلهي الأبدي، وفي الوقت نفسه مترعٌ بشجن حزين من

---

13 ذكريات عن سعيد النورسي ـ ترجمة أسيد إحسان قاسم.

شعور غريب بالتقصير في عبوديته لله تعالى، فعاش حياته بين رجاء وخوف، يسيطران عليه، ويوجهان حركاته وسكناته، ويقودان فكره وقلمه، ويتركان آثارهما على تهجداته وعباداته وتسبيحاته، فقارئ رسائله يتنسم في أجوائها نفحات كنفحات روض عاطر، غير أنه ينتابه شعور بأنه إزاء إنسان حزين يكتم حزنه، وخزين الآم يخفى آلامه، وموطن أشجان يستر أشجانه، ومع هذا يلمس من خلال السطور شخصية رجل قوي الروح، شديد القلب، صلب العود، قادر على الارتفاع فوق آلام العالم بأسره، وأوجاع البشرية جمعاء، إذا اقتضت ذلك خدمة الإيمان والقرآن اللذين أوقف حياته ووجوده عليهما. وعظمة "النورسي" من عظمة ما كان يشغل ذهنه من اهتمامات، ويؤرقه من أفكار، فذهنه مشغول بالإنسان خليفة الله في أرضه، وأبدع مصنوعاته، وأكرم خليقته، وجوهر كونه، وموئل أسمائه الحسنى وصفاته، وهي المشاغل نفسها التي كانت تشغل أذهان الأنبياء والرسل وتؤرق تفكيرهم، فالآخرة هي نقطة المركز في أديانهم، والمحور الذي تدور عليه دعوتهم وتعاليمهم، والحصول على الخلود في الآخرة مقرونة بالرضى الإلهي، هو مطلب أذكارهم وتضرعاتهم وأدعيتهم.

وفي معرض التأسي بالأنبياء السابقين خاطب القرآن الرسول ρ قائلاً: (**واذْكُرْ عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار**)(ص:45) أي: اذكر يا محمد هؤلاء

الأنبياء الأخيار وتأسَّ بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة والبصائر في الدين.

قال الطبري: أي: أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول المبصرة، (**إنَّا أخلصناهم بخالِصَةٍ ذكرى الدار**)(ص:46) أي: خصصناهم بِخَصْلَةٍ عظيمة الشأن، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا، وتذكرهم للدار الباقية.

قال مجاهد: جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها".[14]

كتب تلميذ آخر من تلامذته مشيراً إلى عِظَمِ خشيته من الله تعالى وتعلق همّه بالآخرة فقال:

"عندما كان ينشغل الأستاذ بعباداته وتضرعاته ومناجاته كان يجلس جلسة التشهد في الصلاة، وكان يطيل هذا النوع من الجلوس ساعات طوالا، حتى إنه من جراء هذا الجلوس تقرحت إصبع قدمه.

وفي ذات يوم طلب من أحد طلابه وهو " ملا رسول "[15] مرهماً لمداواة إصبعه، الذي كان منهمكاً في إشعال النار في الموقد. فالتفت إليه ملا رسول قائلاً:

- ونحن أيضاً نخشى الله ونخافه يا أستاذنا، ولكنك ترتعد من خشيتك حتى تكاد مرارتك تنفجر. فلو كنت تجلس كما

---

14 صفوة التفاسير- محمد علي الصابوني - تفسير سورة (ص) –ص55.

15 وهو عالم جليل في مدينة "وان" تتلمذ على يد الأستاذ النورسي رغم أنه يكبره سناً.

نجلس لّما تقرّحتْ إصبعك!

فأجابه الأستاذ قائلاً:

- ملا رسول! ملا رسول! لقد جئنا إلى هنا لكي نظفر بحياة أبدية، بهذا العمر القصير والدنيا القصيرة. أأعيش كما تهوى نفسي ثم أدّعي الجنة وأطلبها.. لا يجوز هذا أبداً..! فلا أجرأ على العيش كما أهوى!"[16].

4 - الدعاء والإجابة

في داخل "النورسي" عَالَمٌ إيمانيٌّ صَلْبٌ لا يُقْهرُ، أقام صَرْحَهُ وشَدَّ أزْرَهُ فيوض روحه بالمواجيد والتضرعات والأدعية إلى الربّ المعبود صاحب القوة والجبروت.

وعلى الرغم من أنَّ الأحزان والمصائب كانت قد هَمَّتْ بالتهامه أكثر من مرة والقضاء على روح الحياة والتحدي فيه إلاّ أنها لم تنجح، وخرج من ليل الخطوب والأتراح سالماً معافى ليستأنف عمله الرسالي في الدعوة إلى الإيمان وإنقاذ الإنسان من بوائق الكفر والإلحاد.

فالدُّعاء والتضرع يحرر صاحبه من أغلال الأحزان، ويُحَوِلُ الحزنَ من كونِهِ عامِلَ تثبيطٍ وتيئيسٍ إلى طاقة إعمار وتشييد، حتى لكأنَّ "الإيمان" المكّبل في زمانه بألف قيدٍ وقيد، قد وَجَدَ فيه النجدة الروعاء، والهمّة القعساء، والعزيمة

16 ذكريات عن سعيد النورسي - ترجمة أسيد إحسان قاسم.

والمضاء، وتلكم هي ضالّةُ "الإيمان" التي يفتش عنها في رجولة الرجال ، ومعادن الأبطال.

وَلِعِظَمِ الرسالةِ المنوطةِ بالإنسان خلق الله تعالى له عالمي الغيب والشهادة، وأنشأ من أجله الدنيا والآخرة، ودعاه إلى معرفته، وطالبه بالشكر على آلائه وإنعامه، وحثَّهُ على الدعاء، وضَمِن له الإجابة، (**و قال ربُّكُمْ أدعوني أستجبْ لكم**)(غافر:60)، أي: أدعوني أُجبكم فيما طلبتم، وأعطكم ما سألتم. قال ابن كثير: نَدَبَ تعالى عِبَادهُ إلى دعائه وتكفّل لهم بالإجابة، فضلاً منه وكرماً "[17]. فهو تعالى رحمان رحيم قبل السؤال، فكيف لا يكون الرحمنَ الرحيم بعد السؤال..؟

فالدُّعاء والتّضَرعُ يطرق أبواب الرحمة الإلهية، وينـزل شآبيبها من فوق السموات السبع، فلولا دعاؤنا لم يلتفتْ إلينا ربُّنا، ولم يكترث بشأننا، فكيف يجيب الربُّ جَلَّ شأنهُ مَنْ لا يسأله، أو يلتفت إلى مَنْ يعرض عنه، وكيف يغيث مَنْ لم يستغث به..؟ (**قُلْ ما يعبأُ بكم ربيّ لولا دعاؤكم**)(الفرقان:77) أي:

قلْ لهم يا محمد: لا يكترث ولا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم إليه، واستغاثتكم إيّاه في الشدائد ،[18] وكأنه يقول تعالى للإنسان: أُدعني أستجبْ لك، نادني ألتفتْ إليك، إستغثْ

---

17 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم86/4. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير- سورة غافر – الجزء الثاني ص 99.

18 محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير- سورة الفرقان – الجزء الثاني ص 340.

بي أُغِثْكَ، استرحمني أرحمْكَ، و(**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**)(البقرة:153) أي: اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة، و (**اشكروا لي ولا تكفرون**) أي: اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان، رُوِي أن موسى عليه السلام قال: يا ربّ كيف أشكرك..؟

قال له ربُّه: تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني "[19].

وأدعية الإمام "النورسي" وتضرعاته، شمولية جامعة، كشمولية فكره وجامعيته، فهي وإنْ كانت تبدأ في خطواتها الأولى ذاتية تُنْبئُ عن خويصةٍ روحيةٍ متألمةٍ، إلاّ أنها لا تلبث أن تتوسع شيئاً فشيئاً حتى تغدو عملية استنهاضٍ للقوى الإيمانية الكامنة في النفس البشرية عموماً.

فأدعيته وتضرعاته يمكن درجها ضِمْنَ ما كان يمليه على تلامذته من دروس الإيمان، بل هي اعظم دروسه الإيمانية، ولعنصر الضراعة فيها تعلو لتلامس سماء الرحمة الإلهية، ثمَّ تهبط لتلامس سماء القلب البشري أينما كان على هذه الأرض، لِتملأ الأرواحَ بطاقات إيمانية يمكن أن تصبح مع الزمن خزيناً تأخذ منه الروح ما يساعدها على الثبات في أوقات الآلام والأزمات. وهو يستنطق القرآن ويصغي من خلال آياته إلى ضراعات الأنبياء والمرسلين، وجنس الإنسان عموماً، وذلك

19 محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير- سورة البقرة – الجزء الأول ص 94.

للمشاكلة والمجانسة ـ على الأقل ـ بين دوافع آلامه وآلامهم، فآلامه ليست بأقلَّ من سواها تبريحاً، فلجأ من الآم الدنيا وأوجاعها إلى ركن **(حسبنا الله ونعم الوكيل)**(آل عمران:173) . وها هو يقول في المرتبة النورية الحسبية الثانية من مجموعة "الشعاعات" ما يأتي:

"إنه مع عجزي غير المتناهي الكامن في فطرتي، ومع الشيخوخة المستقرة في كياني، ومع تلك الغربة التي لقّتني، ومع عدم وجود المعين لي، وقد جُردت من كل شئ هاجمني أرباب الدنيا بجواسيسهم وبدسائسهم.. في هذا الوقت بالذات خاطبت قلبي قائلاً:

إن جيوشاً كثيفة عارمة تهاجم شخصاً واحداً ضعيفاً مريضاً مكبّل اليدين.. أوَ ليس له ـ أي لي ـ من نقطة استناد؟..

فراجعت آية **(حَسبُنا الله ونِعمَ الوَكيل)** فأعلمتني:

إنك تستند بهوية الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة.."

ثم يمضي قائلاً:

"فما دمتَ قد ظفرتَ بنقطة استناد مثل هذه بهوية الانتساب الإيماني، يمكنك إذن الاستناد والاعتماد إلى قوة عظيمة وقدرة مطلقة. وحقاً لقد كنتُ أحسّ بقوة معنوية هائلة كلما كنت أتلقى ذلك الدرس من تلك الآية الكريمة، فكنت أشعر أنني أملك من الاقتدار الإيماني ما يمكّنني من أن أتحدّى بها جميع أعدائي في

العالم وليس الماثلين أمامي وحدهم، لذا ردّدْتُ من أعماق روحي: (**حَسبُنا الله ونِعمَ الوَكيل**) "[20].

ويقول في المرتية الحسبية الرابعة من الشعاع نفسه ما يأتي:

" وافقتْ العوارض المزلزلة لكياني أمثال الشيب والغربة والمرض وكوني مغلوباً على أمري، فترة غفلتي، وكأن وجودي الذي أتعلق به بشدة يذهب إلى العدم، بل وجود المخلوقات كلها يفنى وينتهي إلى الزوال.. ولّد عندي ذهاب الجميع إلى العدم قلقاً شديداً واضطراباً أليماً فراجعت الآية الكريمة أيضاً (**حَسبُنا الله ونِعمَ الوَكيل**) فقالت لي: "تدبّر في معانيّ، وانظر إليها بمنظار الإيمان". وأنا بدوري نظرت إلى معانيها بعين الإيمان فرأيت:

إن وجودي الذي هو ذرة صغيرة جداً، مرآةٌ لوجود غير محدود، ووسيلة للظفر بأنواع من وجود غير محدود بانبساط غير متناهٍ.. وهو بمثابة كلمة حكيمة تثمر من أنواع الوجود الكثيرة الباقية ما هو اكثر قيمة من وجودي وأعلى منه نفاسة حتى أن لحظة عيش له من حيث انتسابه الإيماني ثمين جداً، وله قيمة عالية كقيمة وجودٍ أبدي دائم، فعلمت كل ذلك بعلم اليقين؛ لأنه أدركت بالشعور الإيماني أن وجودي هذا أثرٌ من آثار واجب الوجود وصنعة من صنعته وجلوة من جلواته.

---

20 الشعاعات ص 43-74

فنجوت من ظلمات لا حدّ لها تورثها أوهام موحشة، وتخلصت من آلام لا حدّ لها نابعة من افتراقات وفراقات غير متناهية، ودفعتني لأمدّ روابط اخوة وثيقة إلى جميع الموجودات ولاسيما إلى ذوي الحياة، روابط بعدد الأفعال والأسماء الإلهية المتعلقة بالموجودات. وعلمت أن هناك وصالاً دائماً مع جميع ما أحبه من الموجودات من خلال فراق مؤقت"[21].

ثم انظر من خلال المناجاة الآتية إلى المعاني الجليلة التي أوحت له بها الآية الكريمة (**حسبنا الله ونعم الوكيل**) فيقول:

"إذ هو الموجد الموجود الباقي فلا بأس بزوال الموجودات لدوام الوجود المحبوب ببقاء موجِدِه الواجب الوجود..

وهو الصانع الفاطر الباقي فلا حُزن على زوال المصنوع لبقاء مدار المحبة في صانعه.

وهو المَلكُ المالكُ الباقي فلا تأسّفَ على زوال المُلك المتجدد في زوال وذهاب.

وهو الشاهدُ العالمُ الباقي فلا تحسُّرَ على غيبوبة المحبوبات من الدنيا لبقائها في دائرة علم شاهدها وفي نظره..

وهو الصاحب الفاطرُ الباقي فلا كدر على زوال المستحسنات لدوام منشئ محاسنها في أسماء فاطرها.

وهو الوارثُ الباعثُ الباقي فلا تلهّف على فراق الأحباب لبقاء من يرثهم ويبعثهم.

---

21 الشعاعات ص 79

وهو الجميلُ الجليلُ الباقي فلا تحزّنَ على زوال الجميلات اللاتي هنَّ مرايا للأسماء الجميلات لبقاء الأسماء بجمالها بعد زوال المرايا.

وهو المعبودُ المحبوبُ الباقي فلا تألّم من زوال المحبوبات المجازية لبقاء المحبوب الحقيقي.

نعم، حسبي من بقاء الدنيا وما فيها بقاءُ مالكها وصانعها وفاطرها".

إلى أن يقول:

"حسبي من بقائي أن الله هو إلهي الباقي، وخالقيَ الباقي، وموجديَ الباقي، وفاطريَ الباقي، ومالكيَ الباقي، وشاهديَ الباقي، ومعبوديَ الباقي، وباعثيَ الباقي، فلا بأس ولا حُزن ولا تأسّفَ ولا تحسر على زوال وجودي لبقاء موجدي، وإيجاده بأسمائه. وما في شخصي من صفةٍ إلاّ وهي من شعاع اسمٍ من أسمائه الباقية، فزوالُ تلك الصفة وفناؤها ليس إعداماً لها، لأنها موجودةٌ في دائرة العلم وباقيةٌ ومشهودة لخالقها.

وكذا حسبي من البقاء ولذّته علمي وإذعاني وشعوري وإيماني بأنه إلهي الباقي المتمثل شعاعُ اسمه الباقي في مرآة ماهيتي؛ وما حقيقة ماهيتي إلاّ ظلٌ لذلك الاسم.

فبسرّ تمثّله في مرآة حقيقتي صارت نفسُ حقيقتي محبوبةً لا لذاتها بل بسرّ ما فيها وبقاءُ ما تمثل فيها أنواع بقاءٍ لها" [22].

---

22 الشعاعات ص 96-97

وهذه النماذج من تضرعات "النورسي" وأدعيته التي استعرضناها آنفاً، وإنْ كانت تبنئُ عن ذاتية فردية في انبعاثها الأول، غير أنها ـ وبدون تمحل ـ يمكننا اعتبارها ذات طابعٍ دَعَوِيٍّ عام، وبقدر ما هي تضرع ودعاء فهي كذلك ذِكْرٌ وثناء، ودلائل بينات تعزِّزُ مواقع الإيمان لدى المؤمنين، وتنعي على الجاحدين والشّاكّين المترددين ما هم عليه من ظلمة القلب وجفاف الروح، وأمَّا ما تتركه على أنسجة الروح والفكر من آثار مهدئة وشعورٍ عَذْبٍ لذيذٍ فأمرٌ مجرّب يكاد يبلغ درجة التواتر كما هو في مصطلح الحديث.

فَالمُعْتَزَلاتُ، سواء منها تلكم المفروضة عليه، أو تلكم التي كان يروح إليها بإرادته، ساعدته كثيراً، وألقَتْ به على مشارف روحيةٍ عاليةٍ المرتقى، وهيأته لتلكم المكتشفات العلوية لأعمق حقائق الإيمان، فالصمت والسكينة في المُنْعَزَلِ يحفلان دائماً بالحكمة، ويساعدان على التأمل، ويرهفان مشاعر القلب البشري، فيهتزُّ بِحِدّةٍ لأدنى ما يَمَسُّهُ من تنزلات عوالم الغيب، حتى إنّه ليَشُمُّ روائح النفوس المُغيّبَةِ ويستلهم منها دروس الإيمان كيما تساعده للعبور من مرحلة "علم اليقين" الذي هو فيه، إلى مرحلة "حق اليقين" الذي صار إليه. وبسبب هذه اليقينية يقول ويكرر: إنَّ رسائل النور ـ ولكونها انعكاسات قرآنية ـ ليست بتصورات عقلية قابلة للخطأ والصواب. ولا هي إلهاماتٌ حَدْسِيةٌ قد تختلط بها الأوهام والخيالات، وإنَّما هي يقينيّات مجرّبة عانى صاحبها للتحقق

من صدقها أهوالاً فوق ما يمكن أن تحتمله أصلاب الرجـال، ولا حتى أصـلاب الجبال [23].

فحزنه المديد المتقد لم يستطع أنْ يَمَسَّ أغواره الإيمانية البهيجة، ولا أن يعكر صَفْوَ أفراح روحه بمكتشفاتها الماورائية المُحَجَّبَةِ.

ففي خلواته ومنافيهِ القصية فوق سفوح الجبال، وحين يبلغ الليل عنفوانه، ويَعُمُّ الهدوء وتشيع السكينة، تأتيه الحكمة في موكب مهيب من الجلال والجمال وتَحُطُّ على لسانه وتستوي على عرش فكره وقلبه، فما من ليلة من لياليه تموت خاوية جوفاءَ تحت سنابكِ خيولِ النّهارِ البُلْقِ قبل أنْ يضمخها بعبير أذكاره، ويستودعها كنوز مواجيده وتضرعاته، فالثرثرة ولغط الحديث يصيبه بالقرف، ويملأه بالذُّعْرِ، ويحِسُّ وكأنَّه يريد أن يسحق روحه حتى الموت، من اجل ذلك فإنّه قلّما يأذنُ لأحد في الدخول عليه من أولئك الذين يهمهم الاستمتاع بمجالسته ومبادلتهم إياه الحديث، أو من أولئك الذين يتجشمون عناء سفر طويل بنية التبرك بولي من أولياء الله الصالحين.

وحتى أولئك الذين يأتون متعطشين لدروسه فإنه يحيلهم إلى "رسائل النور" باعتبارها النائبة عنه، والمتكلمة بلسانه، فمن أجل الحفاظ على نقاء الحكمة وصيانتها من التلوث بفضول

---

23 يقول النورسي في المثنوي العربي النوري ما يأتي: "لكن أقول تحديثاً بالنعمة وأداء للأمانة بأني لا أخدعكم، إنما أكتب ما أشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين" إفادة مرام ص 312.

القول اقتصرت لقاءاتُه على قِلّةٍ من خُلّص تلامذته، الذين هم في الوقت نفسه بَرِيْدهُ إلى العالم خارج خلوته أو منفاه، ينقلون إليه رسائل محبيه وتلامذته واستفساراتهم وأسئلتهم عن قضايا تشغل بالهم ويريدون أن يعرفوا رأيه فيها، ثم ينقلون ردوده عليها إليهم.

ولِعِظَمِ خشيته من أن يُخْدَشَ إخلاصه، حرص على ألاّ يراه أحد كائناً مَنْ كان في ساعات صفوه مع الله تعالى، ومناجاته له، وهو ما يصفه رويم قائلاً:

"الإخلاص من العمل هو ألاّ يريد صاحِبُهُ عليه عوضاً في الدارين، ولا حَظّاً من الملكين. وقال الجنيد: الإخلاص سرٌّ بين العبد وبين الله، لا يعلمه مَلَكٌ فيكتبه، ولا شيطانٌ فيفسده، ولا هوىً فيميله. وذكر أبو القاسم القشيري وغيره عن النبي ρ أنه قال: "سألتُ جبريل عن الإخلاص ما هو ؟ فقال: سألتُ ربَّ العِزّة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سرٌّ من سِرّي استودعته قلب مَنْ أحببته من عبادي" [24].

وواحدٌ مما يحفظ عليه سرَّ الإخلاص عدم قبوله لهدايا الناس وأعطياتهم، وأوردُ هنا مقتطفات من رسالة كان قد وجهها إلى تلميذه المخلص "خلوصي يحيى كيل" خمسة أسباب لذلك، ثم يستطرد مبيناً فيقول:

24 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، الجزء الثاني ص 146 ؛ القشيري، الرسالة القشيرية ص 331.

"وكذا فإنَّ فيَّ استيحاشاً من الناس، لا أستطيع قبول زيارة كل شخص في كل حين، فقبول هدايا الناس يُلْزِمُني بقبول زيارتهم في وقت لا أريدها، أخذاً بمراعاة شعورهم، وهذا ما لا أحبذه.

إنني أفضل أن آكل كسرة خبز يابس، وأنْ ألبس ثوباً فيه مائة رقعة ورقعة ينقذني من التصنع والتملق، على أن آكل طيبات أطعمة الآخرين، أو أن البس أفخر ملابسهم وأضطر إلى مراعاة مشاعرهم وهذا ما أكرهه.

السادس: أي "السبب السادس":

إن السبب المهم للاستغناء عن الناس هو ما يقوله ابن حجر [25] الموثوق حسب مذهبنا (الشافعي):يحرم قبول ما يوهب لك بنية الصلاح، إن لم تكن صالحاً [26].

نعم إن إنسان هذا العصر يبيع هديته البخسة بثمن باهظ، لحرصه وطمعه، فيتصور شخصاً مذنباً عاجزاً مثلي ولياً صالحاً، ثم يعطيني رغيفاً هديةً. فإذا اعتقدت أنني صالح – حاش لله - فهذا علامة الغرور، ودليل على عدم الصلاح. وان

25 احمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي (909- 974هـ)

26 "ومَنْ أُعطي لوصفٍ يُظنُّ به كفقرٍ أو صلاح أو نسبٍ بأن توفرّت القرائن انه إنما أُعطي بهذا القصد أو صرّح له المُعطي بذلك وهو باطناً بخلافه، حَرُم عليه الأخذ مطلقاً ومثله ما لو كان به وصفٌ باطناً لو أطّلع عليه المُعطي، لم يُعْطِهِ. ويجري ذلك في الهدية أيضاً على الأوجه. مثلها سائر عقود التبرّع فيما يظهر كهِبَةٍ ووصيةٍ ووقفٍ ونذر« (تحفة المحتاج لشرح المنهاج 7/ 178" لابن حجر الهيتمي الشافعي. ـ المترجم.

لم اعتقد صلاحي، فقبول ذلك المال غير جائز لي.
وأيضاً إن أخذ الصدقة والهدية مقابل الأعمال المتوجهة للآخرة يعني قطف ثمرات خالدة للآخرة، بصورة فانية في الدنيا" [27].

5 – بين أشواق الروح وأشواق الطبيعة

"النورسي" روحٌ جَوَّابُ آفاق، حَوَّامٌ فوق الآكام وغوراب الجبال، وبرصانته العلوية الوقور، وبثباتة جأشه، يضع عصا ترحاله ذات مرةٍ فوق قمة جبل "جام" ويلقي بأوجاعه وآلام غربته في أحضان الطبيعة التي لا يخشى ظلمها ولا يحاذر من غدرها، إنها تحترم صمته الذي هو أبلغ من كل كلام، وبآذان جائعة تصغي إلى صلواته وضراعاته، فيؤنس بذلك وحشتها، وتؤنس هي وحشته، وتجد في جيشان روحه هِزّةُ طرب يثير وجدها، ويضرم أشواقها فتكاشفه بما انطوت عليه نفسها من أسرار الله وبما حفظه كيانها من مظاهر قوة الله وعظمته، أما دفقات حنانها فتلامس بالعزاء أرواح المكروبين، وقلوب الوالهين ، إنَّهُ ـ على الأقل ـ لم يَعُدْ يواجه في هذا المكان المنعزل صوراً من القبح في خُلِق الإنسان، وفي سلوك ذوي السلطان.

27 المكتوبات ـ المكتوب الثاني ص17

ويجدر أن نستعرض هنا إحدى رسائله إلى جماعة من خلّص تلامذته، يشرح لهم فيها ما كان يعانيه من أنواع الغربة التي تلازمه أينما حَلَّ وكيفما مضى، يقول رحمه الله:

"باسمه سبحانه

(وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ)(الإسراء:44)

سلام الله ورحمته وبركاته عليكم وعلى إخوانكم لا سيما... الخ

اخوتي الأعزاء!

أنا الآن في موضع، على ذروة شجرة صنوبر ضخمة عظيمة، منتصبة على قمة شاهقة من قمم جبل "جام" . لقد استوحشتُ من الإنس واستأنست بالوحوش.. وحينما ارغب في المحاورة والمجالسة مع الناس أتصوركم بقربي خيالاً، وأجاذبكم الحديث وأجد السلوان بكم. وأنا على رغبة في أن أظل هنا وحيداً مدة شهر أو شهرين، إن لم يحدث ما يمنع، وإن رجعت إلى "بارلا" نتحرى معاً حسب رغبتكم عن وسيلة لمجالسة ومحاورة بيننا. فقد اشتقتُ إليها اكثر منكم.

والآن اكتب إليكم ما ورد بالبال من خواطر على شجرة الصنوبر هذه:

أولاها: خاطرة فيها شئ من الخصوصية، فهي من أسراري، ولكن لا يُكتم عنكم السر، وهو:

إن قسماً من أهل الحقيقة يحظون باسم الله "الودود" من الأسماء الحسنى، وينظرون إلى واجب الوجود من خلال نوافذ

الموجودات بتجليات المرتبة العظمى لذلك الاسم. كذلك أخوكم هذا الذي لا يعدّ شيئاً يذكر، وهو لا شئ، قد وُهب له وضع يجعله يحظى باسم الله "الرحيم" واسم الله "الحكيم" من الأسماء الحسنى، وذلك أثناء ما يكون مستخدماً لخدمة القرآن فحسب، وحينما يكون منادياً لتلك الخزينة العظمى التي لا تنتهي عجائبها.

فجميع "الكلمات" إنما هي جلوات تلك الحظوة. نرجو من الله تعالى أن تكون نائلة لمضمون الآية الكريمة: **(ومَن يؤتَ الحِكمة فقد أُوتيَ خيراً كثيراً)** (البقرة:269)"[28].

وهذه رسالة أخرى موجّهة إلى تلميذين عزيزين من تلامذته، يقول فيها:

"اخويّ الغيورين، زميلَيّ الشهمين، يا مبعثي سلواني في دار الغربة، الدنيا..

لما كان المولى الكريم سبحانه وتعالى قد جعلكما مشاركين لي في المعاني التي أنعمها على فكري، فمن حقكما إذاً مشاركتي في مشاعري وأحاسيسي.

سأحكي لكما بعضاً مما كنت أقاسيه من ألم الفراق في غربتي هذه، طاوياً ما هو اكثر إيلاماً منه لئلا أجعلكما تتألمان كثيراً.

لقد بقيت منذ شهرين أو ثلاثة وحيداً فريداً، وربما يأتيني

---

28 المكتوبات ص 23-24

ضيف في كل عشرين يوماً أو ما يقرب من ذلك، فأظل وحيداً في سائر الأوقات. ومنذ ما يقرب من عشرين يوماً ليس حولي أحد من أهل الجبل، فلقد تفرقوا.

ففي هذه الجبال الموحية بالغربة، وعندما يرخى الليل سدوله، فلا صوت ولا صدى، إلاّ حفيف الأشجار الحزين.. رأيتني وقد غمرتني خمسة ألوان من الغربة.

أولها: إني بقيت وحيداً غريباً عن جميع أقراني وأحبابي وأقاربي، فيما أخذت الشيخوخة مني مأخذاً، فشعرت بغربة حزينة من جراء تركهم لى ورحيلهم إلى عالم البرزخ.

ومن هذه الغربة انفتحت دائرة غربة اخرى، وهي أنني شعرت بغربة مشوبة بألم الفراق حيث تركتني اكثر الموجودات التي أتعلق بها كالربيع الماضي.

ومن خلال هذه الغربة انفتحت دائرة غربة اخرى، وهي الغربة عن موطني وأقاربي، فشعرت بغربة مفعمة بألم الفراق، إذ بقيت وحيداً بعيداً عنهم.

ومن خلال هذه الغربة ألقت عليّ أوضاع الليل البهيم والجبال الشاخصة امامي، غربة فيها من الحزن المشوب بالعطف ما أشعرني أن ميدان غربة أخرى انفتحت أمام روحي المشرفة على الرحيل عن هذا المضيف الفاني متوجهة نحو أبد الآباد، فضمتنى غربة غير معتادة، وأخذني التفكير، فقلت فجأة: سبحان الله! وفكرت كيف يمكن أن تقاوم كل هذه الظلمات المتراكبة وأنواع الغربة المتداخلة!.

فاستغاث قلبي قائلاً:

يا رب! أنا غريب وحيد، ضعيف غير قادر، عليل عاجز، شيخ لا خيار لي.

فأقول: الغوث الغوث. أرجو العفو، واستمد القوة من بابك يا إلهي!.

وإذا بنور الإيمان وفيض القرآن ولطف الرحمن يمدّني من القوة ما يحول تلك الأنواع الخمسة من الغربة المظلمة، إلى خمس دوائر نورانية من دوائر الأنس والسرور. فبدأ لساني يردد: (**حسبنا الله ونعم الوكيل**) (آل عمران: 173) وتلا قلبي الآية الكريمة: (**فإن تولّوا فقل حَسبيَ الله لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم**) (التوبة:129).

وخاطب عقلي كذلك نفسي القلقة المضطربة المستغيثة قائلاً:

دع الصُراخ يا مسكين، وتوكل على الله في بلواك.

إنما الشكوى بلاء.

بل بلاء في بلاء، وآثام في آثام في بلاء.

إذا وجدتَ مَن ابتلاك،

عاد البلاء عطاء في عطاء، وصفاء في صفاء، ووفاء في بلاء.

دع الشكوى، واغنم الشكر كالبلابل؛ فالأزهار تبتسم من بهجة عاشقها البلبل.

فبغير الله دنياك آلام وعذاب، وفناء وزوال، وهباء في بلاء.

فتعال، توكل عليه في بلواك!

ما لكَ تصرخ من بلية صغيرة، وأنت مثقلٌ ببلايا تسع الدنيا.

تبسّم بالتوكل في وجه البلاء، ليبتسم البلاء.

فكلما تبسّم صغُر وتضاءل حتى يزول.

وقلت كما قال أحد أساتذتي مولانا جلال الدين الرومي مخاطباً نفسه:

"أتدري ما سر البلاء؟.. انه طرقُ باب الفقر والاستغناء عن الناس.[29]

وحينئذٍ قالت نفسي: أجل! أجل!. إن الظلمات لتتبدد وباب النور لينفتح بالعجز والتوكل والفقر والالتجاء . فالحمد لله على نور الإيمان والإسلام.

وقد رأيت هذه الفقرة من "الحكم العطائية" المشهورة تنطوي على حقيقة جليلة وهي قوله:

ماذا وجَدَ من فَقَده وماذا فقد مَن وَجَده؟[30]

أي: إن الذي وجده فقد وجد كل شئ، ومن فقده لا يجد شيئاً سوى البلاء.

---

29 يعني: لما قال سبحانه: "ألست بربكم" قلت: "بلى"!. فأين الشكر على قولك بلى؟ انه مقاساة البلاء! أتدري ما سر البلاء؟ انه طرق باب الفقر والفناء في الله – من هامش المترجم.

30 هذه الفقرة (ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك) هي من مناجاة ابن عطاء الله السكندري، المذكورة في ختام "الحكم العطائية".

وفهمت سراً من أسرار الحديث الشريف (.. طوبى للغرباء..)[31] فشكرت الله.

فيا اخويّ!

إن ظلمات أنواع الغربة هذه، وان تبددت بنور الإيمان، إلاّ أنها تركت فيّ شيئاً من بصمات أحكامها، وأوحت بهذه الفكرة:

ما دمت غريباً وأعيش في الغربة وراحلاً إلى الغربة، فهل انتهت مهمتي في هذا المضيف، كي أوكلكم و"الكلمات" عني. وأقطع حبال العلاقات عن الدنيا قطعاً كلياً؟

وحيث إن هذه الفكرة وردت على البال بهذه الصورة، فكنت أسألكم:

هل "الكلمات" المؤلفة كافية؟ وهل فيها نقص؟ وأعني بهذا السؤال: هل انتهت مهمتى كي أنسى الدنيا وألقي بنفسي في أحضان غربة نورانية لذيذة حقيقية باطمئنان قلب وأقول كما قال مولانا جلال الدين:

ليت شعري هل لي أن ابحث عن غربة رفيعة سامية!.

ولأجل هذا كنت أجابهكم بتلك الأسئلة" [32].

6- الدعاء من سنن الكون

فالدعاء والتضرع ليس هو من سُنَنِ الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين فحسب، بل هو ـ كما يرى النورسي ـ سنّة

---

31 اصل الحديث: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء) رواه مسلم عن أبى هريرة : الإيمان : 232 والترمذي : الإيمان 13 .

32 المكتوبات ـ المكتوب السادس ص 29-32

كونية عامّة، تشملُ الكون وما حَوَى، والوجود ومَا وَعى، فما مِنْ فانٍ لَبِسَ ثوبَ الوجود إلاّ بسبب استجابة رحمانية لدعوة سابقة في علم الله تعالى بلسان الحال أو المقال، لذلك قال جَلَّ شأنه (**وآتاكم من كُلِّ ما سألتموه**)(ابراهيم:34) فالآخرة والخلود فيها جواب على استغاثة الفطرة في الإنسان، وحنينها إلى الخلود، وإشفاقها من العدم.

فالفطرة دعاء، والأخذ بالأسباب دعاء، والذكر دعاء، والثناء على الله دعاء، والشكر على نعمائه دعاء، وما تنطوي عليه النفس البشرية من استعدادات عقلية ووجدانية للارتقاء في سلّم المدنية والحضارة دعاء.

والنورسي بهذا الفهم الشمولي الكوني والوجودي للدعاء والتضرع يشكل استدراكاً في غاية الأهمية على الفهم التقليدي النمطي الذي يقصُرُ الدعاء على الإنسان وحده من دون العالمين، وبذلك يعيد للخليقة اعتبارها التعبُّدي من حيث كَوْنُها ليستْ بأقلَّ حاجةٍ من الإنسان للدعاء والتضرع، واستمداد ديمومية حياتها ووجودها من القيومية الإلهية المحيطة بكلية الكون والوجود.

فالدعاء والتضرع ـ بلسان الحال أو المقال ـ ينتظم جميع الأشياء في هذا العالم، وإذا ما سكت مقال الإنسان عن الدعاء لأي سبب من الأسباب، يبقى لسان حاله في دعاءٍ خفيٍ لا يتوقف لحظةً واحدةً راجياً مستغيثاً طالباً العون والتأييد من

الربّ المعبود على حفظ وجوده وإمدادهِ بما يمكّنِهُ من أداء رسالته المناطة به في هذه الحياة.

وقد اهتمَّ "النورسي" كثيراً بتوكيد هذا المعنى في النفوس، ومن أجل ذلك كان يستهل دروسه الإيمانية، ويبدأ رسائله وخطاباته إلى تلامذته بالآية الكريمة: (**وإنْ مِنْ شئٍ إلاّ يسبح بحمده**)(الإسراء:44) ويختمها بعبارة "يا باقي أنت الباقي" تذكيراً للناسين وتنبيهاً للغافلين، وإشارةً إلى هذه السنة الإلهية في الدعاء والتضرع التي لا يشذ عنها مخلوق من مخلوقات الله، فلو كُشِفَ الغطاءُ عن أسماعنا لسمعنا:

"ملايين الأصوات بملايين اللغات، تضجُّ بدعاء ملتهب تستنـزل به من خزائن الرحمة الإلهية حاجاتها المتجددة بتجدد اللحظات.

صلوات وتسابيح وأذكار تتعالى من قلب الكائنات في كل لمحة تومئ وتشير إلى إمدادات الله وعطاياه.. أصوات.. أصوات.. أصوات كل الكائنات، وجميع الموجودات من الذرّات حتى المجرَّات تتخاشع أمام ربّ العالمين وتهمس في رجاءٍ وإشفاق:

فقراء ـ يا ربنا ـ فاغننا .. عُراةُ فاكسنا .. جوعى أطعمنا .. عطشى اسقنا .. موتى أحينا .. معدومون أوجدنا .. محجوبون ـ بنورك ـ أظهرنا .. حاجاتنا إليك ـ يا ربنا ـ لا تنتهي.. فأعطنا حاجاتنا.. أمّنْ رغباتنا.. حقِقْ آمالنا..

مِنْ غيرك نحن مشلولون.. بسواك نحن هامدون.. فأعِنَّا يا خالقنا لأداءِ ما لأجله خلقتنا.. وحركنا لإنجاز مهامَّنا التي بها حياتنا..

يا واجب الوجود.. يا الله.. يا رحمن.. يا رحيم.. مَنْ للممكنات أحدٌ سواك..؟ ومَنْ لها غيرك..؟ منكَ أتينا وإليك ـ في حاجاتنا- نعود.. ومنك حياتنا وإليك ـ في حفظها ـ نرجع.. فأجب دعاءنا يا مجيب كُلِ داعٍ.. ويا معطي كلَّ ذي حاجةٍ حاجته.. آمين" [33].

وفي عتمة التراب تنادي البذور والنّوى بلسان استعداداتها وتقول:

في أعماق كل بذرةٍ ونواةٍ شجرة.. وبين جذوعنا اليابسة خضرة ماتعة.. وربيعٌ رائق.. ونضرة مشرقة.. فأعِنَّا يا فالق الحبّ والنوى على أن يشرق من أعماقنا ربيع الشجر.. وخضرة الورق.. ونضرة الفَنَن.. اسقِنا ـ يا ربَّنا ـ ماء رحمتك.. مُدَّنا بدفءِ عنايتك.. غَذِّنا بلطف رعايتك.. يا مقلّبَ القلوب.. يا ملين القلوب.. ألِنْ قلبَ الأرض لنا.. وفجّرْ عيون الرحمة في حَجَرها وصَخَرها.. واملأ كفَّ التراب غذاءً.. واغمره حناناً.. واجعله مفعماً بحبنا والرفق بنا.. حتى نتحول

33 قراءات في فكر النورسي ـ النوافذـ ترجمة إحسان قاسم الصالحي ـ عرض وتعليق كاتب هذه السطور ص 11ـ12ـ مطبعة الزهراء الحديثة – الموصل – العراق -1985

شجراً.. ونثمر ثمراً، ونحقق ما خلقتنا لأجله.. وفطرتنا بسببه.." [34].

ولا يبلغ الدعاء ذروة الإخلاص إلاّ إذا انقلب إلى مناجاة خفية بين العبد وبارئه، وهي أعلى ما يمكن أنْ يرقى إليه الروح، ويسموَ إليه الفؤاد. وصاحب المناجاة لا يبتغي من ورائها أجراً، فأجرُ المناجاةِ، المناجاةُ نفسها، ومردودها يقين المناجي بأنه جليس الله وكليمه، وبأنّ قلبه المسكين الذي ظلَّ يبحث عن مأوى يُؤْوي إليه يجد الآن المأوى والسكن والسكينة بين يدي الله تعالى، وأنه تعالى أقرب إليه من حبل الوريد، يسمع مناجاته، ويشهد سِرَّهُ، ويعلم ما خفي من أغوار نفسه.

وهو بعد ذلك لن يعود من مناجاته صِفْرَ اليدين من عطايا الحق وألطافه، هذه العطايا والألطاف التي تمنحُ وجُوْدَهُ معنىً، وتعطي لحياته قيمةً، وتنقذه من الشعور بالدونية، وأنه ليس أكثر من لُقيةٍ مهملة في بيداء الوجود لا يعيره أحد اهتماماً أو التفاتاً، لكنه اليوم موضع التفات ربِّ الوجود، وموضع نظره وعنايته، فَيُحِسُّ أنَّ شيئاً ما يتحرك بالحياة في مَواتِ ذاته، وأنّ إيمانه العتيق بدأ يتجّدد، ويزيد قوةً وبصيرةً، وأنه يُعَادُ صُنْعُهُ مرةً أخرى على عين الله وفي كنفه ورعايته.

وقلب المناجي الذي تتنـزلُ عليه ألطاف الله ورحماته، ليس كائناً منعزلاً عن بقية أجزاء النفس. فسموّ العقل، وعلو الفكر،

---

34 المصدر نفسه ص 19-20

وطهارة البدن، تدين كلها لهذه الألطاف الإلهية التي يُفيْضُ به قلبُ المناجي على بقية أجزاء النفس. وهكذا يكون الإنسان الربَّاني الذي ألمحَ إليه القرآن الكريم، والسنّة النبوية الشريفة، ووصفه أقطاب الإيمان في كل زمان ومكان.

وبالإضافة إلى عمل المناجاة في بناء النفس المؤمنة المطمئنة، فهي كذلك واحدة من عظيم الآيات التي دلَّ بها الله تعالى على وجوده سبحانه، فكما أنَّ ضوء الشمس الذي يغمر الأجواء الطلقة خارج غرفنا لا يتسّلل إلى هذه الغرف لإنارتها ما لم نفتح له النوافذ والأبواب، فكذلك ولا مشاحة في المثال ـ ولله المثل الأعلى والأقدس ـ فإن نور الله تعالى لا ينفذ إلينا ما لم نفتح منافذ الروح والقلب على العوالم الإلهية ما وراء عالم الحسّ والشهادة، ليغمرنا نوره، وليتعزّز إيماننا، ويتحول علمنا اليقين بوجوده إلى حقّ يقينّي يكاد يكون ملموساً نوره بأنامل الروح، ومشاهداً ببصيرة القلب، وهذا هو ما تمنحنا إياه المناجاة من خفايا أسرار الدعاء والتضرع.

وفي المثنوي العربي النوري [35]يقول النورسي: "لله درُّ العِلّة والذلّةِ ما أحلاها وهي مُرَّة إذْ هي التي تذيقك لذة المناجاة والتضرع والدعاء، عن ابن سمعون: كل كلام خلا من الذكر

35 ص 314

فهو لغو، وكل سكوت خلا عن الفكرة فهو سهو، وكل نظر خلا من العبرة فهو لهو".[36]

وفي الصفحات القادمة يستعرض لنا "النورسي" أنواع الأدعية والمناجاة وكما يأتي:

1- دعاء بلسان الاستعداد،

2- دعاء بلسان الأسباب،

3- دعاء بلسان الفطرة،

4- دعاء فعلي

5- دعاء قولي.

وذلك في الذيل الأول من المكتوب الرابع والعشرين.

وبعد ذلك يعرض لنا نموذجين من نماذج "أدب المناجاة" لنبيين من أنبياء الله هما يونس وأيوب عليهما السلام كما أشار إليها القرآن الكريم " في اللمعة الأولى وفي اللمعة الثانية من اللمعات.

الذيل الأول[37]

(قُلْ مَا يَعْبَؤا بِكُمْ رَبّي لَوْلا دُعَآؤُكُمْ) (الفرقان: 77)

النكتة الأولى:

اعلم إن الدعاء سر عظيم للعبادة، بل هو مخ العبادة

---

36 ابن سمعون الزاهد البغدادي(300-387هـ) وهو أبو الحسين محمد بن احمد بن إسماعيل (أو سمعون) كان يلقب الناطق بالحكمة، مولده ووفاته ببغداد، علت شهرته، حتى قيل " أوعظ من ابن سمعون". انظر إحياء علوم الدين، كتاب التفكر.

37 المكتوبات ص387-390

وروحها، والدعاء ـ مثلما ذكرناه في مواضع أخرى كثيرة ـ على أنواع ثلاثة.

النوع الأول من الدعاء:

هو دعاء بلسان الاستعداد والقابلية المودعة في الشيء. فالحبوب والنويات جميعها تسأل فاطرها الحكيم بلسان استعدادها وقابلياتها المودعة فيها قائلة: اللّهم يا خالقنا هيئ لنا نمواً نتمكن به من إبراز بدائع أسمائك الحسنى، فنعرضها أمام الأنظار.. فحوّل اللّهم حقيقتنا الصغيرة إلى حقيقة عظيمة.. تلك هي حقيقة الشجرة والسنبل.

وثمة دعاء من هذا النوع ـ أي بلسان الاستعداد ـ هو اجتماع الأسباب. فاجتماع الأسباب دعاء لإيجاد المسبب، أي أن الأسباب تتخذ وضعاً معيناً وحالة خاصة بحيث تكون كلسان حال يطلب المسبب من القدير ذي الجلال، فالبذور ـ مثلا ـ تسأل بارءها القدير أن تكون شجرة، وذلك بلسان استعدادها فيتخذ كلٌ من الماء والحرارة والتراب والضوء حالة معينة حول البذرة حتى تكون تلك الحالة كأنها لسان ينطق بالدعاء قائلاً : اللّهم يا خالقنا اجعل هذه البذرة شجرة.

نعم، إن الشجرة التي هي معجزة قدرة إلهية خارقة لا يمكن بحال من الأحوال أن يُفوض أمرها ويسند خلقها إلى تلك المواد البسيطة الجامدة الفاقدة للشعور، بل محال إحالتها إلى تلك الأسباب.. فاجتماع الأسباب إذاً إنما هو نوع من الدعاء.

النوع الثاني من الدعاء:

هو الدعاء الذي يُسأل بلسان حاجة الفطرة، فالكائنات الحية جميعها تطلب مطاليبها وتسأل حاجاتها - الخارجة عن طوقها واختيارها - من خالقها الرحيم وتُستجاب لها مطاليبها وحاجاتها في انسب وقت ومن حيث لا تحتسب، إذ إن أيديها قاصرة عن أن تصل إلى ما تريد أو دفع حاجة لها، فإرسال كل ما تطلبه إذن مما هو خارج عن طوقها واختيارها وفي انسب وقت ومن حيث لا تحتسب إنما هو من قبل حكيم رحيم. وإغداق هذا الإحسان والإنعام ما هو إلاّ استجابة لدعاء فطري.

نحصل من هذا: أن هذا النوع من الدعاء الفطري تنطلق به ألسنة حاجة الفطرة لجميع الكائنات فتسأل الخالق القدير مطاليبها، والتي هي من قبيل الأسباب تسأل القدير العليم المسببات.

النوع الثالث من الدعاء:

هو الدعاء الذي يسأله ذوو الشعور لتلبية حاجاتهم. وهذا الدعاء نوعان أيضاً:

فالقسم الأول: مستجاب على الأغلب إن كان قد بلغ درجة الاضطرار، أو كان ذا علاقة قوية مع حاجة الفطرة وموافقة معها، أو كان قريباً من لسان الاستعداد والقابلية، أو كان خالصاً صافياً نابعاً من صميم القلب.

إن ما أحرزه الإنسان من رقي، وما نال من كشوفات ما هو إلاّ نتيجة هذا النوع من الدعاء، إذ ما يطلقون عليه من

خوارق الحضارة والأمور التي يحسبونها مدار افتخار اكتشافاتهم ما هو إلاّ ثمرة هذا الدعاء المعنوي الذي سألته البشرية بلسان استعداد خالص فاستجيب لها. فما من دعاء يُسأل بلسان الاستعداد وبلسان حاجة الفطرة إلاّ استجيب إن لم يكن هناك مانع، وكان ضمن شرائطه المعينة.

أما **القسم الثاني**: فهو الدعاء المعروف لدينا. وهذا أيضاً فرعان:

أحدهما فعلي والآخر قولي.

فمثلاً: حرث الأرض نوع من دعاء فعلي، يطلب الإنسان الرزق من رزاقه الحكيم، يطلبه منه لا من التراب، فالتراب باب لخزينة رحمته الواسعة ليس الا، يطرقه الإنسان بالمحراث.

سنطوى تفاصيل الأقسام الأخرى ونذكر بضعة أسرار للدعاء "القولي" وذلك في بضع نكات آتية:

النكتة الثانية

اعلم إن تأثير الدعاء عظيم، ولا سيما إذا دام واكتسب الكلية، فهذا الدعاء يثمر على الأغلب ويستجاب دائماً. حتى يصح أن يقال: إن سبب خلق العالم إنما هو دعاء، حيث إن الدعاء العظيم للرسول الأعظم ρ وهو يتقدم العالم الإسلامي الذي يدعو الدعاء نفسه، وهم يتقدمون البشرية جمعاء التي تسأل الدعاء نفسه.. ذلك الدعاء هو: السعادة الأبدية، وهو سبب من أسباب خلق العالم. أي أن رب العالمين قد علم بعلمه

الأزلي أن ذلك الرسول الكريم ρ سيسأله السعادة الأبدية والحظوة بتجل من تجليات أسمائه الحسنى، سيسأله باسم البشرية قاطبة بل باسم الموجودات.. فاستجاب سبحانه وتعالى لذلك الدعاء العظيم فخلق هذا العالم.

فما دام الدعاء قد اكتسب هذه الأهمية العظيمة والسعة الشاملة فهل يمكن ألا يستجاب؟ وهل يمكن لدعاء يلهج به مئات الملايين من البشر ـ في الأقل ـ ومنذ ألف وثلاث مائة سنة، يدعونه متفقين، في كل حين، بل يدعو معهم كل الطيبين من الجن والملك والروحانيات ممن لا يحصون ولا يعدون.. هل يمكن ألاّ يستجاب هذا الدعاء الذي يدعونه للرسول الكريم ρ لينال الرحمة الإلهية العظيمة والسعادة الخالدة.

فما دام قد اكتسب هذا الدعاءُ الكلية والسعة والدوام إلى هذا الحد حتى بلغ درجة لسان الاستعداد وحاجة الفطرة، فلابد أن ذلك الرسول الكريم محمد بن عبد الله ρ قد اعتلى نتيجة الدعاء ـ مرتبة رفيعة عالية بحيث لو اجتمعت العقول جميعاً للإحاطة بحقيقة تلك المرتبة لعجزت عجزاً تاماً.

فبشراك أيها المسلم! أن لك شفيعاً كريماً في يوم الحشر الاعظم، هو هذا الرسول الحبيب ρ .. فاسع لنيل شفاعته باتباع سنته المطهرة.

فان قلت: ما حاجة الرسول الكريم ρ وهو حبيب رب العالمين إلى هذه الكثرة من الدعاء والصلوات عليه؟

الجواب: انه ρ ذو علاقة قوية مع سعادة أمته قاطبة، فله

حصته مما يناله كل فرد من أفراد أمته من أنواع السعادة، وهو يحزن أيضاً ويتألم لكل مصيبة تصيبهم.

فعلى الرغم من أن مراتب الكمال والسعادة بحقه لا حد لها، فان الذي يرغب رغبة شديدة في أن تنال أفراد أمته الذين لا يحدون أنواعاً لا تحد من السعادة وفي أزمان لا تحد، ويتألم بأنواع لا حد لها من شقائهم ومصائبهم، لابد أنه محتاج وحري به صلوات لا حد لها وأدعية لا حد لها ورحمة لا حد لها.

فان قلت: يُدعى أحياناً بدعاء خالص لأمور تقع قطعاً كالدعاء في صلاة الكسوف والخسوف، وقد يدعى أحياناً لأمور لا يمكن وقوعها..

الجواب: لقد أوضحنا في كلمات أخرى: إن الدعاء نوع من العبادة، حيث يعلن الإنسان عجزه وفقره بالدعاء. أما المقاصد الظاهرية فهي أوقات تلك الأدعية والعبادة الدعائية، وهي ليست نتائج الأدعية وفوائدها الحقيقية، لان فائدة العبادة وثمرتها متوجهة إلى الآخرة، أي يجنيها الداعي في الآخرة، لذا لو لم تحصل المقاصد الدنيوية التي يتضمنها الدعاء فلا يجوز القول: إن الدعاء لم يستجب، وإنما يصح القول: انه لم ينقضِ بعدُ وقت الدعاء.

فهل يمكن يا ترى ألاّ يستجاب دعاء للسعادة الخالدة، يسألها جميع أهل الإيمان في جميع الأزمنة، يسألونه بإلحاح وخلوص نية وباستمرار. فهل يمكن ألاّ يقبل الرحيم المطلق والكريم المطلق - التي تشهد الكائنات بسعة رحمته وشمول كرمه -

هذا الدعاء، وهل يمكن ألاّ تتحقق تلك السعادة الأبدية!؟ كلا ثم كلا..

النكتة الثالثة:

إن استجابة "الدعاء القولي الاختياري" تكون بجهتين: فإما أن يستجاب الدعاء بعينه أو بما هو افضل منه وأولى.

فمثلاً: يدعو أحدهم أن يرزقه الله مولوداً ذكراً، فيرزقه الله تعالى مولودة كمريم عليها السلام، فلا يقال عندئذ: أن دعاءه لم يستجب، بل قد استجيب بما هو افضل من دعائه.

ثم إن الإنسان قد يدعو لنيل سعادة دنيوية، فيستجيب الله له لسعادة أخروية فلا يقال: أن دعاءه لم يستجب، بل قد استجيب بما هو انفع له.. وهكذا.

فنحن إذن ندعوه سبحانه ونسأل منه وحده، وهو يستجيب لنا، إلاّ أنه يتعامل معنا على وفق حكمته لأنه حكيم عليم.. فينبغي للمريض ألاّ يتهم حكمة الطبيب الذي يعالجه، إذ ربما يطلب منه أن يداويه بالعسل، فلا يعطيه الطبيب - لعلمه انه مصاب بالحمى - إلاّ دواء مراً علقماً!. فلا يحق للمريض أن يقول: إن الطبيب لا يستجيب لدعائي، بل قد استمع لأناته وصراخه، وأجابه فعلاً، وبأفضل منه.

النكتة الرابعة:

إن أطيب ثمرة حاضرة يجنيها المرء من الدعاء وألذّها، وان اجمل نتيجة آنية يحصل عليها المرء من الدعاء وألطفها هي الآتي:

إن الداعي يعلم يقيناً أن هناك من يسمعه، ويترحم عليه ويسعفه بدوائه، وقدرته تصل إلى كل شيء. وعندها يستشعر في نفسه انه ليس وحيداً فريداً في هذه الدنيا الواسعة بل هناك كريم ينظر إليه بنظر الكرم والرحمة، فيدخل الأنس إلى قلب الداعي، ويتصور انه في كنف الرحيم المقتدر على قضاء حاجاته غير المحدودة ودفع أعدائه غير المعدودة. وفي حضور دائم امامه، فيغمره الفرح والانشراح، ويشعر انه قد ألقى عن كاهله عبئاً ثقيلاً، فيحمد الله قائلاً: الحمد لله رب العالمين.

النكتة الخامسة:

ان الدعاء روح العبادة ومخها، وهو نتيجة إيمان خالص، لأن الداعي يُظهر بدعائه أن الذي يهيمن على العالم كله ويطّلع على أخفى أموري ويحيط بكل شئ علماً هو القادر على إغاثتي وإسعاف أبعد مقاصدي وهو البصير بجميع أحوالي والسميع لندائي، لذا فلا اطلب إلاّ منه وحده فهو يسمع أصوات الموجودات كلها، ولابد انه يسمع صوتي وندائي أيضاً.. وهو الذي يدير الأمور كلها فلا انتظر تدبير أدق أموري إلاّ منه وحده.

وهكذا فيا أيها المسلم! تأمل في سعة التوحيد الخالص الذي يهبه الدعاء للمرء، وانظر مدى ما يظهره الدعاء من حلاوة خالصة لنور الإيمان وصفائه، وافهم منه حكمة قوله تعالى: **(قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم)** (الفرقان: 77) واستمع

إلى قوله تعالى **(وقال ربكم ادعوني استجب لكم)** (غافر:60).. وانه لحق ما قيل: (اكر نه خواهي داد نه دادى خواه) أي لو لم يرد القضاء ما ألهم الدعاء[38].

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاَّ مَا عَلّمْتَنَا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

اللهم صلّ على سيدنا محمد من الأزل إلى الأبد عدد ما في علم الله وعلى آله وصحبه وسلم . سلّمنا وسلم ديننا آمين والحمد لله رب العالمين.

اللمعة الأولى[39]

إن مناجاة سيدنا يونس بن متى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - هي من أعظم أنواع المناجاة وأروعها، ومن ابلغ الوسائل لاستجابة الدعاء وقبوله .[40]

تتلخص قصته المشهورة بأنه - عليه السلام - قد أُلقي به إلى البحر، فالتقمه الحوت، وغشيته أمواج البحر الهائجة، وأسدل الليل البهيم ستاره المظلم عليه. فداهمته الرهبة والخوف من كل مكان وانقطعت أمامه أسباب الرجاء وانسدت

---

38 انظر حلية الأولياء لأبي نعيم 263/3

39 اللمعات ص 6

40 عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ρ قال: (دعوة ذي النون إذ دعا في بطن الحوت، قال: لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فانه لم يدع بها رجل مسلم في شئ إلاّ استجاب الله له).

حديث صحيح: أخرجه احمد (170/1) والترمذي(3572 - تحفة) والحاكم (505/1 و283/2) وصححه، ووافقه الذهبي، والحديث عزاه السيوطي في الجامع الصغير للنسائي والبيهقي في شعب الإيمان والضياء في المختارة وحسنه الحافظ في تخريج الأذكار.

أبواب الأمل.. وإذا بمناجاته الرقيقة وتضرعه الخالص الزكي:
(لا إلهَ إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظالمين) (الأنبياء:87) يصبح له في تلك الحالة واسطة نجاة ووسيلة خلاص.

وسر هذه المناجاة العظيم هو:

أن الأسباب المادية قد هوت كلياً في ذلك الوضع المرعب، وسقطت نهائياً فلم تحرك ساكناً ولم تترك أثراً، ذلك لان الذي يستطيع أن ينقذه من تلك الحالة، ليس إلاّ ذلك الذي تنفذ قدرتُه في الحوت، وتهيمن على البحر وتستولي على الليل وجو السماء؛ حيث إن كلا من الليل الحالك والبحر الهائج والحوت الهائل قد اتفق على الانقضاض عليه، فلا ينجيه سبب، ولا يخلصه أحد، ولا يوصله إلى ساحل السلامة بأمان، إلاّ مَن بيده مقاليد الليل وزمام البحر والحوت معاً، ومَن يسخّر كل شئ تحت أمره.. حتى لو كان الخلق أجمعين تحت خدمته عليه السلام ورهن إشارته في ذلك الموقف الرهيب، ما كانوا ينفعونه بشيء!.

أجل لا تأثير للأسباب قط.. فما أن رأى عليه السلام بعين اليقين ألاّ ملجأ له من أمره تعالى إلاّ اللواذ إلى كنف مسبب الأسباب، انكشف له سرُّ الأحدية من خلال نور التوحيد الساطع، حتى سخرتْ له تلك المناجاةُ الخالصة الليل والبحر والحوت معاً، بل تحوّل له بنور التوحيد الخالص بطنُ الحوت المظلم إلى ما يشبه جوف غواصة أمينة هادئة تسير تحت

البحر، واصبح ذلك البحر الهائج بالأمواج المتلاطمة ما يشبه المتنـزه الآمن الهادئ، وانقشعت الغيوم عن وجه السماء - بتلك المناجاة - وكشف القمر عن وجهه المنير كأنه مصباح وضئ يتدلى فوق رأسه..

وهكذا غدت تلك المخلوقات التي كانت تهدده وترعبه من كل صوب وتضيق عليه الخناق، غدت الآن تسفر له عن وجه الصداقة، وتتقرب إليه بالود والحنان، حتى خرج إلى شاطئ السلامة وشاهد لطف الرب الرحيم تحت شجرة اليقطين.

فلننظر بنور تلك المناجاة إلى أنفسنا.. فنحن في وضع مخيف ومرعب أضعاف أضعاف ما كان فيه سيدنا يونس عليه السلام، حيث إن:

ليلنا الذي يخيم علينا، هو المستقبل.. فمستقبلنا إذا نظرنا إليه بنظر الغفلة يبدو مظلماً مخيفاً، بل هو أحلك ظلاماً وأشد عتامة من الليل الذي كان فيه سيدنا يونس عليه السلام بمائة مرة..

وبحرنا، هو بحر الكرة الأرضية، فكل موجة من أمواج هذا البحر المتلاطم تحمل آلاف الجنائز، فهو إذن بحر مرعب رهيب بمائة ضعف رهبة البحر الذي ألقي فيه عليه السلام.

وحوتنا، هو ما نحمله من نفس أمارة بالسوء، فهي حوت يريد أن يلتقم حياتنا الأبدية ويمحقها. هذا الحوت اشد ضراوة من الحوت الذي ابتلع سيدنا يونس عليه السلام؛ إذ كان يمكنه أن يقضي على حياة أمدها مائة سنة، بينما حوتنا نحن يحاول إفناء مئات الملايين من سني حياة خالدة هنيئة رغيدة.

فما دامت حقيقة وضعنا هذه، فما علينا إذاً إلاّ الاقتداء بسيدنا يونس عليه السلام والسير على هديه، معرضين عن الأسباب جميعاً، مقبلين كلياً على ربنا الذي هو مسبب الأسباب متوجهين إليه بقلوبنا وجوارحنا، ملتجئين إليه سبحانه قائلين: (**لا إله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظالمين**)(الأنبياء:87) مدركين بعين اليقين أن قد ائتمر علينا - بسبب غفلتنا وضلالنا - مستقبلُنا الذي يرتقبنا، ودنيانا التي تضمنا، ونفوسُنا الأمارة بالسوء التي بين جنبينا، موقنين كذلك انه لا يقدر أن يدفع عنا مخاوف المستقبل وأوهامه، ولا يزيل عنا أهوال الدنيا ومصائبها، ولا يبعد عنا أضرار النفس الأمارة بالسوء ودسائسها، إلاّ من كان المستقبل تحت أمره، والدنيا تحت حكمه، وأنفسنا تحت إدارته .

تُرى مَن غيرُ خالق السموات والأرضين يعرف خلجات قلوبنا، ومَن غَيرُه يعلم خفايا صدورنا، ومَن غَيرُه قادر على إنارة المستقبل لنا بخلق الآخرة، ومَن غيرُه يستطيع أن ينقذنا من بين ألوف أمواج الدنيا المتلاطمة بالأحداث؟!. حاش لله وكلا أن يكون لنا منجٍ غيره ومخلّصٍ سواه، فهو الذي لولا إرادته النافذة ولولا أمره المهيمن لما تمكن شيء أينما كان وكيفما كان أن يمد يده ليغيث أحداً بشيء!.

فما دامت هذه حقيقة وضعنا فما علينا إلاّ أن نرفع اكفّ الضراعة إليه سبحانه متوسلين، مستعطفين نظر رحمته الربانية الينا، اقتداء بسر تلك المناجاة الرائعة التي سخّرت

الحوت لسيدنا يونس عليه السلام كأنه غواصة تسير تحت البحر، وحولت البحر متنـزها جميلا، وألبست الليل جلباب النور الوضيء بالبدر الساطع. فنقول: (**لا إله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظالمين)** . فنلفت بها نظر الرحمة الإلهية إلى مستقبلنا بقولنا: (**لا إله إلاّ أنتَ**). ونلفتها إلى دنيانا بكلمة: (**سبحانك)** ونرجوها أن تنظر إلى أنفسنا بنظر الرأفة والشفقة بجملة: (**إنّي كنتُ من الظالمين)** كي يعم مستقبلنا نور الإيمان وضياء بدر القرآن، وينقلب رعب ليلنا ودهشته إلى أمن الأنس وطمأنينة البهجة. ولتنتهي مهمة حياتنا ونختتم وظيفتها بالوصول إلى شاطئ الأمن والأمان دخولا في رحاب حقيقة الإسلام، تلك الحقيقة التي هي سفينة معنوية أعدّها القرآن العظيم، فنبحر بها عباب الحياة، فوق أمواج السنين والقرون الحاملة لجنائز لا يحصرها العد، ويقذفها إلى العدم تبدل الموت والحياة وتناوبهما الدائبين في دنيانا وارضنا، فننظر إلى هذا المشهد الرهيب بمنظار نور القرآن الباهر، وإذا هو مناظر متبدلة، متجددة، يحول تجددها المستمر تلك الوحشة الرهيبة النابعة من هبوب العواصف وحدوث الزلازل للبحر إلى نظر تقطر منه العبرة، ويبعث على التأمل والتفكر في خلق الله. فتستضيء وتتألق ببهجة التجدد ولطافة التجديد. فلا تستطيع عندها نفوسنا الأمارة على قهرنا، بل نكون نحن الذين نقهرها بما منحنا القرآن الكريم من ذلك السر اللطيف، بل نمتطيها بتلك التربية المنبثقة من القرآن الكريم. فتصبح النفس

الأمارة طوع إرادتنا، وتغدو وسيلة نافعة ووساطة خير للفوز بحياة خالدة.

الخلاصة:

إن الإنسان بما يحمل من ماهية جامعة يتألم من الحمى البسيطة كما يتألم من زلزلة الأرض وهزاتها ويتألم من زلزال الكون العظيم عند قيام الساعة، ويخاف من جرثومة صغيرة كما يخاف من المذنبات الظاهرة في الأجرام السماوية، ويحب بيته ويأنس به كما يحب الدنيا العظيمة، ويهوى حديقته الصغيرة ويتعلق بها كما يشتاق إلى الجنة الخالدة ويتوق إليها.

فما دام أمر الإنسان هكذا، فلا معبود له ولا رب ولا مولى ولا منجأ ولا ملجأ إلاّ من بيده مقاليد السموات والأرض وزمام الذرات والمجرات، وكل شيء تحت حكمه، طوع أمره.. فلابد أن هذا الإنسان بحاجة ماسة دائماً إلى التوجه إلى بارئه الجليل والتضرع إليه اقتداء بسيدنا يونس عليه السلام. فيقول:

(لا إله إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظالمين)

(سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا اِلاَّ ما عَلَّمْتَنا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيم)

اللمعة الثانيـة[41]

بسم الله الرحمن الرحيم

(وأيوبَ إذْ نادى ربّه أني مَسّني الضُرُّ وأنتَ أرحمُ

41 اللمعات ص 10-20

الراحمين) (الأنبياء:83)

هذه المناجاة اللطيفة التي نادى بها رائد الصابرين سيدنا أيوب عليه السلام مجرّبة، وذات مفعول مؤثر، فينبغي أن نقتبس من نور هذه الآية الكريمة ونقول في مناجاتنا: رب أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين.

وقصة سيدنا أيوب عليه السلام المشهورة، نلخصها بما يأتي:

أنه عليه السلام ظل صابراً ردحاً من الزمن يكابد ألم المرض العضال، حتى سرت القروح والجروح إلى جسمه كله، ومع ذلك كان صابراً جلداً يرجو ثوابه العظيم من العلي القدير. وحينما أصابت الديدان الناشئة من جروحه قلبه ولسانه اللذين هما محل ذكر الله وموضع معرفته، تضرع إلى ربه الكريم بهذه المناجاة الرقيقة: **(أني مَسّني الضُرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين)** خشية أن يصيب عبادته خلل، ولم يتضرع إليه طلباً للراحة قط، فاستجاب الله العلي القدير لتلك المناجاة الخالصة الزكية استجابة خارقة بما هو فوق المعتاد، وكشف عنه ضرّه وأحسن إليه العافية التامة واسبغ عليه ألطاف رحمته العميمة.

في هذه اللمعة خمس نكات.

النكتة الأولى:

انه إزاء تلك الجروح الظاهرة التي أصابت سيدنا أيوب عليه السلام، توجد فينا أمراض باطنية وعلل روحية وأسقام

قلبية، فنحن مصابون بكل هذا. فلو انقلبنا ظاهراً بباطن وباطناً بظاهر، لظهرنا مُثقلين بجروح وقروح بليغة، ولبدت فينا أمراضٌ وعلل اكثر بكثير مما عند سيدنا أيوب عليه السلام، ذلك لأن:

كل ما تكسبه أيدينا من إثم، وكل ما يلج إلى أذهاننا من شبهة، يشق جروحاً غائرة في قلوبنا، ويفجر قروحاً دامية في أرواحنا.. ثم إن جروح سيدنا أيوب عليه السلام كانت تهدد حياته الدنيا القصيرة بخطر، أما جروحنا المعنوية نحن فهي تهدد حياتنا الأخروية المديدة بخطر.. فنحن إذن محتاجون أشد الحاجة إلى تلك المناجاة الأيوبية الكريمة بأضعاف أضعاف حاجته عليه السلام إليها. وبخاصة أن الديدان المتولدة من جروحه عليه السلام مثلما أصابت قلبه ولسانه،فان الوساوس والشكوك - نعوذ بالله - المتولدة عندنا من جروحنا الناشئة من الآثام والذنوب تصيب باطن القلب الذي هو مستقر الإيمان فتزعزع الإيمان فيه، وتمس اللسان الذي هو مترجم الإيمان فتسلبه لذة الذكر ومتعته الروحية، ولا تزال تنفره من ذكر الله حتى تسكته كلياً.

نعم، الإثم يتوغل في القلب ويمد جذوره في أعماقه، وما ينفك ينكت فيه نكتاً سوداء حتى يتمكن من إخراج نور الإيمان منه، فيبقى مظلماً مقفراً، فيغلظ ويقسو.

نعم، إن في كل إثم وخطيئة طريقاً مؤدياً إلى الكفر، فإن لم يُمحَ ذلك الإثم فوراً بالاستغفار يتحول إلى دودة معنوية، بل

إلى حية معنوية تعض القلب وتؤذيه. ولنوضح ذلك بما يأتي:

مثلاً: إن الذي يرتكب سراً إثماً يُخجَل منه، وعندما يستحي كثيراً من اطلاع الآخرين عليه، يثقل عليه وجود الملائكة والروحانيات، ويرغب في إنكارهم بأمارة تافهة.

ومثلاً: إن الذي يقترف كبيرة تفضي إلى عذاب جهنم. إن لم يتحصن تجاهها بالاستغفار، فما أن يسمع نذير جهنم وأهوالها يرغب من أعماقه في عدم وجودها، فيتولد لديه جرأة لإنكار جهنم من أمارة بسيطة أو شبهة تافهة.

ومثلاً: إن الذي لا يقيم الفرائض ولا يؤدي وظيفة العبودية حق الأداء وهو يتألم من توبيخ آمره البسيط لتقاعسه عن واجب بسيط، فان تكاسله عن أداء الفرائض إزاء الأوامر المكررة الصادرة من الله العظيم، يورثه ضيقاً شديداً وظلمة قاتمة في روحه، ويسوقه هذا الضيق إلى الرغبة في أن يتفوه ويقول ضمناً: "ليته لم يأمر بتلك العبادة!" وتثير هذه الرغبة فيه الإنكار، الذي يشم منه عداءً معنوياً تجاه ألوهيته سبحانه!، فإذا ما وردت شبهةٌ تافهة إلى القلب حول وجوده سبحانه، فانه يميل إليها كأنها دليل قاطع. فينفتح أمامه باب عظيم للهلاك والخسران المبين، ولكن لا يدرك هذا الشقي أنه قد جعل نفسه - بهذا الإنكار - هدفاً لضيق معنوي ارهب وأفظع بملايين المرات من ذلك الضيق الجزئي الذي كان يشعر به من تكاسله في العبادة، كمن يفرّ من لسع البعوض إلى عض الحية!!

فليُفهم في ضوء هذه الأمثلة الثلاثة سرّ الآية الكريمة: (**كلاّ**

بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يَكسبون)(المطففين:14)

النكتة الثانية:

مثلما وضّح في "الكلمة السادسة والعشرين" الخاصة بالقدر: أن الإنسان ليس له حق الشكوى من البلاء والمرض بثلاثة وجوه:

الوجه الأول:

إن الله سبحانه يجعل ما ألبسه الإنسان من لباس الوجود دليلا على صنعته المبدعة، حيث خلقه على صورة نموذج "موديل" يفصّل عليه لباس الوجود، يبدله ويقصه ويغيره مبيناً بهذا التصرف تجليات مختلفة لأسمائه الحسنى. فمثلما يستدعي اسم "الشافي" المرض، فان اسم "الرزاق" أيضاً يقتضي الجوع. وهكذا فهو سبحانه مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء.

الوجه الثاني:

إن الحياة تتصفى بالمصائب والبلايا، وتتزكى بالأمراض والنوائب، وتجد بها الكمال وتتقوى وتترقى وتسمو وتثمر وتنتج وتتكامل وتبلغ هدفها المراد لها، فتؤدي مهمتها الحياتية. أما الحياة الرتيبة التي تمضى على نسق واحد وتمر على فراش الراحة، فهي أقرب إلى العدم الذي هو شر محض منه إلى الوجود الذي هو خير محض. بل هي تفضي إلى العدم.

الوجه الثالث:

إن دار الدنيا هذه ما هي إلاّ ميدان اختبار وابتلاء، وهي دار

عمل ومحل عبادة، وليست محل تمتع وتلذذ ولا مكان تسلم الأجرة ونيل الثواب.

فمادامت الدنيا دار عمل ومحل عبادة، فالأمراض والمصائب عدا الدينية منها وبشرط الصبر عليها تكون ملائمة جداً مع ذلك العمل، بل منسجمة تماماً مع تلك العبادة، حيث إنها تمد العمل بقوة وتشد من أزر العبادة، فلا يجوز التشكي منها، بل يجب التحلي بالشكر لله بها، حيث إن تلك الأمراض والنوائب تحوّل كل ساعة من حياة المصاب عبادة ليوم كامل.

نعم، إن العبادة قسمان:

قسم إيجابي وقسم سلبي..

فالقسم الأول معلوم لدى الجميع، أما القسم الآخر فان البلايا والضر والأمراض تجعل صاحبها يشعر بعجزه وضعفه، فيلتجئ إلى ربه الرحيم، ويتوجه إليه ويلوذ به، فيؤدي بهذا عبادة خالصة. هذه العبادة خالصة زكية لا يدخل فيها الرياء قط. فإذا ما تجمّل المصاب بالصبر وفكّر في ثواب ضره عند الله وجميل أجره عنده، وشكر ربه عليها، تحولت عندئذ كل ساعة من ساعات عمره كأنها يوم من العبادة، فيغدو عمره القصير جداً مديداً طويلاً، بل تتحول - عند بعضهم - كل دقيقة من دقائق عمره بمثابة يوم من العبادة.. ولقد كنت أقلق كثيراً على ما أصاب أحد اخوتي في الآخرة وهو "الحافظ

احمد المهاجر" [42] بمرض خطير، فخطر إلى القلب ما يأتي:

"بشّره، هنّئه، فان كل دقيقة من دقائق عمره تمضي كأنها يوم من العبادة" حقاً انه كان يشكر ربه الرحيم من ثنايا الصبر الجميل.

النكتة الثالثـة:

مثلما بينّا في "الكلمات" السابقة أنه: إذا ما فكر كل إنسان فيما مضى من حياته فسيرد إلى قلبه ولسانه: واأسفاه، أو الحمد لله، أي إما أنه يتأسف ويتحسر ، أو يحمد ربه ويشكره. فالذي يقطّر الأسف والأسى إنما يكون بسبب الآلام المعنوية الناشئة من زوال اللذائذ السابقة وفراقها، ذلك لأن زوال اللذة ألم، بل قد تورث لذةٌ زائلة طارئة آلاماً دائمة مستمرة، فالتفكر فيها يعصر ذلك الألم ويقطّر منه الأسف والاسى، بينما اللذة المعنوية والدائمة الناشئة من زوال الآلام المؤقتة التي قضاها المرء في حياته الفائتة، تجعل لسانه ذاكراً بالحمد والثناء لله تعالى.. هذه حالة فطرية يشعر بها كل إنسان، فإذا ما فكر المصاب – علاوة على هذا – بما أدّخر له ربه الكريم من ثواب جميل وجزاء حسن في الآخرة وتأمل في تحول عمره القصير بالمصائب إلى عمر مديد فانه لا يصبر على ما انتابه من ضُر وحده، بل يرقى أيضاً إلى مرتبة الشكر لله والرضا

---

42 المهاجر الحافظ احمد: هو أحد أشراف التجار في بارلا ومن أوائل طلاب النور لازم الأستاذ النورسي طوال بقائه في بارلا . توفي سنة 1948م رحمة الله عليه. ـ المترجم.

بقَدَره، فينطلق لسانه حامداً ربه وقائلاً: الحمد لله على كل حال سوى الكفر والضلال.

ولقد سار مثلا عند الناس: "ما أطول زمن النوائب!". نعم، هو كذلك ولكن ليس بالمعنى الذي في عرف الناس وظنهم من أنه طويل بما فيه من ضيق وألم، بل هو طويل مديد كالعمر الطويل بما يثمر من نتائج حياتية عظيمة.

النكتة الرابعة:

لقد بيّنا في المقام الأول للكلمة الحادية والعشرين:

إن الإنسان إن لم يشتت ما وهبه الباري سبحانه من قوة الصبر، ولم يبعثرها في شعاب الأوهام والمخاوف، فان تلك القوة يمكن أن تكون كافية للثبات حيال كل مصيبة وبلاء، ولكن هيمنة الوهم وسيطرة الغفلة عليه والاغترار بالحياة الفانية كأنها دائمة.. يؤدي إلى الفتّ من قوة صبره وتفريقها إلى آلام الماضي ومخاوف المستقبل، فلا يكفيه ما أودعه الله من الصبر على تحمل البلاء النازل به والثبات دونه، فيبدأ ببث الشكوى حتى كأنه يشكو الله للناس، مبدياً من قلة الصبر ونفاده ما يشبه الجنون فضلاً عن أنه لا يحق له أن يجزع جزعه هذا أبداً؛ ذلك لان كل يوم من أيام الماضي – إن كان قد مضى بالبلاء – فقد ذهب عسره ومشقته وترك راحته، وقد زال تعبه وألمه وترك لذته، وقد ذهب ضنكه وضيقه وثبت أجره، فلا يجوز إذن الشكوى منه، بل ينبغي الشكر لله تعالى عليه بشوق ولهفة. ولا يجوز كذلك الامتعاض من المصيبة

والسخط عليها بل ينبغي ربط أواصر الحب بها، لأن عمر الإنسان الفاني الذي قد مضى يتحول عمراً سعيداً باقياً مديداً بما يعاني فيه من البلاء، فمن البلاهة والجنون أن يبدد الإنسان قسماً من صبره ويهدره بالأوهام والتفكر في البلايا التي مضت والآلام التي ولّت. أما الأيام المقبلة، فحيث إنها لم تأت بعد ومجهولة مبهمة، فمن الحماقة التفكر فيها من الآن والجزع عمّا يمكن أن يصيب الإنسان فيها من مرض وبلاء. فكما أنه حماقة أن يأكل الإنسان اليوم كثيراً من الخبز ويشرب كثيراً من الماء لما يمكن أن يصيبه من الجوع والعطش في الغد أو بعد غد، كذلك التألم والتضجر من الآن لما يمكن أن يبتلى به في المستقبل من أمراض ومصائب هي الآن في حكم العدم، وإظهار الجزع نحوها دون أن يكون هناك مبرر واضطرار، هو بلاهة وحماقة إلى حد تسلب العطف على صاحبها والإشفاق عليه. فوق أنه قد ظلم نفسه بنفسه.

الخلاصـة:

إن الشكر مثلما يزيد النعمة، فالشكوى تزيد المصيبة وتسلب الترحم والإشفاق على صاحبها.

لقد ابتلى رجل صالح من مدينة "أرضروم" بمرض خطير وبيل، وذلك في السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى، فذهبت إلى عيادته وبثّ لي شكواه:

- "لم أذق طعم النوم منذ مائة يوم..". تألمت لشكواه الأليمة هذه، ولكن تذكرت حينها مباشرة وقلت:

- أخي! إن الأيام المائة الماضية لكونها قد ولّت ومضت فهي الآن بمثابة مائة يوم مسرّة مفرحة لك، فلا تفكر فيها ولا تشكُ منها، بل انظر إليها من زاوية زوالها وذهابها، واشكر ربك عليها. أما الأيام المقبلة فلأنها لم تأت بعد، فتوكل على رحمة ربك الرحمن الرحيم واطمئن إليها. فلا تبك قبل أن تضرب، ولا تخف من غير شيء، ولا تمنح العدم صبغة الوجود. اصرف تفكيرك في هذه الساعة بالذات، فإن ما تملكه من قوة الصبر تكفي للثبات لهذه الساعة. ولاتكن مثل ذلك القائد الأحمق الذي شتت قوته في المركز يميناً وشمالاً في الوقت الذي التحقت ميسرة العدو إلى صفوف ميمنة جيشه فأمدتها، وفي الوقت الذي لم تكُ ميمنة العدو متهيأة للحرب بعد.. فما أن علم العدو منه هذا حتى سدد قوة ضئيلة إلى المركز وقضى على جيشه.

فيا أخي! لا تكن كهذا، بل حشّد كل قواك لهذه الساعة فقط، وترقّب رحمة الله الواسعة، وتأمل في ثواب الاخرة، وتدبّر في تحويل المرض لعمرك الفاني القصير إلى عمر مديد باق، فقدّم الشكر الوافر المسر إلى العلي القدير بدلا من هذه الشكوى المريرة.

انشرح ذلك الشخص المبارك من هذا الكلام وانبسطت أساريره حتى شرع بالقول: الحمد لله. لقد تضاءل ألمي كثيراً.

النكتة الخامسة:

وهي ثلاث مسائل:

المسألة الأولى:

إن المصيبة التي تعدّ مصيبة حقاً والتي هي مضرة فعلاً، هي التي تصيب الدين. فلابد من الالتجاء إلى الله سبحانه والانطراح بين يديه والتضرع إليه دون انقطاع. أما المصائب التي لا تمس الدين فهي في حقيقة الأمر ليست بمصائب، لأن قسماً منها:

تنبيه رحماني! يبعثه الله سبحانه إلى عبده ليوقظه من غفلته، بمثل تنبيه الراعي لشياهه عندما تتجاوز مرعاها، فيرميها بحجر، والشياه بدورها تشعر أن راعيها ينبهها بذلك الحجر ويحذرها من أمر خطير مضر، فتعود إلى مرعاها برضى واطمئنان. وهكذا النوائب الظاهرة فإن الكثير منها تنبيه إلهي، وإيقاظ رحماني للإنسان.

أما القسم الآخر من المصائب فهو كفارة للذنوب.

وقسم آخر أيضاً من المصائب هو منحة إلهية لتطمين القلب وإفراغ السكينة فيه، وذلك بدفع الغفلة التي تصيب الإنسان، وإشعاره بعجزه وفقره الكامنين في جبلته.

أما المصيبة التي تنتاب الإنسان عند المرض ـ فكما ذكرنا آنفا ـ فهي ليست بمصيبة حقيقية، بل هي لطف رباني لأنه تطهير للإنسان من الذنوب وغسل له من أدران الخطايا، كما ورد في الحديث الصحيح:

(ما من مسلم يصيبه أذى إلاّ حاتّ الله عنه خطاياه كما

يحاتّ ورق الشجر) [43]

وهكذا فان سيدنا أيوب عليه السلام لم يدعُ في مناجاته لأجل نفسه وتطميناً لراحته، وإنما طلب كشف الضر من ربه عندما أصبح المرض مانعاً لذكر الله لسانا، وحائلاً للتفكر في ملكوت الله قلباً، فطلب الشفاء لأجل القيام بوظائف العبودية خالصة كاملة. فيجب علينا نحن أيضاً أن نقصد - بتلك المناجاة - أول ما نقصد: شفاء جروحنا المعنوية وشروخنا الروحية القادمة من ارتكاب الآثام واقتراف الذنوب ولنا الالتجاء إلى الله القدير عندما تحول الأمراضُ المادية دون قيامنا بالعبادة كاملة، فنتضرع اليه عندئذ بكل ذل وخضوع ونستغيثه دون أن يبدر منا أي اعتراض أو شكوى، إذ مادمنا راضين كل الرضا بربوبيته الشاملة فعلينا الرضا والتسليم المطلق بما يمنحه سبحانه لنا بربوبيته.. أما الشكوى التي تومئ إلى الاعتراض على قضائه وقدره، وإظهار التأفف والتحسر، فهي أشبه ما يكون بنقد للقدر الإلهي العادل واتهام لرحمته الواسعة.. فمن ينقد القدر يصرعه ومن يتهم الرحمة يُحرم منها. إذ كما أن استعمال اليد المكسورة للثأر يزيدها كسراً، فان مقابلة المبتلي مصيبته بالشكوى والتضجر والاعتراض والقلق تضاعف البلاء.

المسألة الثانيـة:

---

43 البخاري ، كتاب المرضى5647.

كلما استعظمت المصائب المادية عظُمت، وكلما استصغرتَها صغرت. فمثلاً: كلما اهتم الإنسان بما يتراءى له من وهم ليلاً يُضخم ذلك في نظره، بينما إذا أهمله يتلاشى. وكلما تعرض الإنسان لوكر الزنابير ازداد هجومها وإذا أهملها تفرقت.

فالمصائب المادية كذلك كلما تعاظمها الإنسان واهتم بها وقلق عليها تسربت من الجسد نافذة في القلب ومستقرة فيه، وعندها تتنامى مصيبة معنوية في القلب وتكون ركيزة للمادية منها فتستمر الأخيرة وتطول. ولكن متى ما أزال الإنسان القلق والوهم من جذوره بالرضا بقضاء الله، وبالتوكل على رحمته تضمحل المصيبة المادية تدريجياً وتذهب، كالشجرة التي تموت وتجف أوراقها بانقطاع جذورها.

ولقد عبّرتُ عن هذه الحقيقة يوماً بما يأتي:

ومن الشكوى بلاءٌ.

أنت يا مسكينُ دعها وتوكلْ.

أنت إن تسلمْ إلى الوهاب نجواك وجدتْ.

فإذا الكلُّ عطاء.

وإذا الكلُّ صفاء.

فبغير الله: دنياك متاهات وخوف!

أ فيشكو مَن على كاهله يحمل كلّ الراسيات

حبةٌ الرمل الضئيلة؟

إنما الشكوى بلاءٌ في بلاء.

وأثام في أثام وعناء!
أنت إن تَبْسَم في وجه البلاء.
عادت الأرزاء تذوي وتذوب.
تحت شمس الحق حباتِ بَرَد!
فإذا دنياك بَسمة،
بسمةٌ من ثغرها ينسابُ ينبوعُ اليقين.
بسمةٌ نشوى بإشراق اليقين.
بسمةٌ حيرى بأسرار اليقين.

نعم..! إن الإنسان مثلما يخفف حدّة خصمه باستقباله بالبشر والابتسامة، فتتضاءل سَورة العداوة وتنطفئ نار الخصومة، بل قد تنقلب صداقةً ومصالحة، كذلك الأمر في استقبال البلاء بالتوكل على القدير يذهبُ أثره.

المسـألة الثالثـة:

أن لكل زمان حُكمه، وقد غيّر البلاء شكله في زمن الغفلة هذا، فلا يكون البلاء بلاء عند البعض دوماً، بل إحساناً إلهياً ولطفاً منه سبحانه. وأرى المبتلين بالضر في هذا الوقت محظوظين سعداء بشرط ألا يمس دينهم، فلا يولد المرض والبلاء عندي ما يجعلهما مضرين في نظري حتى أعاديهما، ولا يورثانني الإشفاق والتألم على صاحبهما، ذلك ما أتاني شاب مريض إلاّ وأراه أكثر ارتباطاً من أمثاله بالدين، وأكثر تعلقاً منهم بالآخرة.. فأفهم من هذا أن المرض بحق هؤلاء ليس بلاء، بل هو نعمة من نعمه سبحانه التي لا تعد ولا تحصى،

حيث إن ذلك المرض يمد صاحبه بمنافع غزيرة من حيث حياته الأخروية ويكون له ضرباً من العبادة، مع أنه يمس حياته الدنيا الفانية الزائلة بشيء من المشقة.

نعم قد لا يستطيع هذا الشاب أن يحافظ على ما كان عليه في مرضه من الالتزام بالأوامر الإلهية فيما إذا وجد العافية، بل قد ينجرف إلى السفاهة بطيش الشباب ونـزواته وبالسفاهة المستشرية في هذا الزمان.

خـاتمـة

إن الله سبحانه قد أدرج في الإنسان عجزاً لا حد له، وفقراً لانهاية له، إظهاراً لقدرته المطلقة وإبرازاً لرحمته الواسعة. وقد خلقه على صورة معينة بحيث يتألم بما لا يحصى من الجهات، كما أنه يتلذذ بما لا يعد من الجهات، إظهاراً للنقوش الكثيرة لأسمائه الحسنى. فأبدعه سبحانه على صورة ماكنة عجيبة تحوي مئات الآلات والدواليب، لكل منها آلامها ولذائذها ومهمتها وثوابها وجزاؤها، فكأن الأسماء الإلهية المتجلية في العالم الذي هو إنسان كبير تتجلى أكثرها أيضاً في هذا الإنسان الذي هو عالم أصغر، وكما أن ما فيه من أمور نافعة - كالصحة والعافية واللذائذ وغيرها - تدفعه إلى الشكر وتسوق تلك الماكنة إلى القيام بوظائفها من عدة جهات، حتى يغدو الإنسان كأنه ماكنة شكر. كذلك الأمر في المصائب والأمراض والآلام وسائر المؤثرات المهيجة والمحركة، تسوق الدواليب الأخرى لتلك الماكنة إلى العمل والحركة

وتثيرها من مكمنها فتفجّر كنوز العجز والضعف والفقر المندرجة في الماهية الإنسانية. فلا تمنح المصائبُ الإنسان الالتجاء إلى البارئ بلسان واحد، بل تجعله يلتجئ إليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه. وكأن الإنسان بتلك المؤثرات والعلل والعقبات والعوارض يغدو قلماً يتضمن آلاف الأقلام، فيكتب مقدرات حياته في صحيفة حياته أو في اللوح المثالي، وينسج لوحة رائعة للأسماء الإلهية الحسنى، ويصبح بمثابة قصيدة عصماء ولوحة إعلان.. فيؤدي وظيفة فطرته".

7 ـ الدعاء من أهم معالم دعوة النور

لقد عاشت دعوة "النورسي" في أجواء قدسية من الحضور الإلهي الدائم، ونَمَتْ وكبرتْ في آفاق عالية تحت ظِلٍّ من سحائب الأدعية والتضرعات النورسية المستديمة، فأدراك حقيقة "الطينة البشرية" من حيث كونها مزيجاً من الفقر المطلق، والعجز المطلق، هو الذي يدفع بها في اتجاه اللجوء إلى الغنى الإلهي المطلق، والقدرة الربّانية المطلقة، وهذا هو سِرٌّ ما تفتّق عنه وجدان "النورسي" من أدعية وتضرعات شكّلتْ واحداً من أهم معالم دعوته، فالألوف من القناديل اشتعلت في ليالي القلوب حين مَسَّتْها بعض قبسات هذه الأدعية، وأمّا نُوَّامُ الهمَمِ فقاموا مسرعين ينفضون عن أهدابهم أثقال سنينَ من السُباتِ المقيت، وأما فجرُ اليقين فسرعانَ ما

أضاء غاشيات الشكوك والأوهام، وبدّدَ ما كان يتلاطم في أجواف تلامذته من دياجير الغفلة، وفي رحيق روحه غسل كثيرٌ من الناس مراراتِ نفوسهم، ولم تكن روحه هي وحدها التي طلبت العلوَ فوق الأكوان، بل كُلُّ قطرةٍ من دَمِهِ كانت تشتهي أنْ تعلوَ مع الدّعاء إلى ما عَلَتْ إليه روحه.

إنَّ حشداً هائلاً من رَميم الكلام لا يمكنه أن يقيم قلباً مُعْوَجاً مائلاً للانهدام، أو أنْ يبني روحاً خَرِباً يسكنه الظلام، ولكنّ كلمة دعاء حارّة مخلصة يمكنها أن تفعل المعجزات، فتقيم المعوجات، وتَعْمُرُ الخرائب.

إنّ هذا الشعور الدائم بالمعية الإلهية، والأقربية الرحمانية، دفع "النورسي" إلى الاستغناء والاستعلاء على أي مصدر بشريٍّ من مصادر الأمداد والتأييد، وظلَّ طوال حياته المباركة متعلقاً بالله يستمدُّ منه العونَ والمدد والتسديد، وهذا هو سبب تفَرُّدِ دعوته منهجاً وسلوكاً بين الدعوات.

فأدعيته وضراعاته، لها طابعها الدعوي الاستدلالي على وجوده تعالى، وعلى واحديته وأحديته، وحاجة كل موجود إليه سبحانه وتعالى وكما نرى في المناجاة الآتية:

"اعلم: أنَّ قلبي قد يبكي من خلال أنيناته العربية بكاءً تركياً، بتهييج المحيط الحزين، فاكتبُ كما بَكَيْتُ:

"لا أريد من كان زائلاً لا أريد

أنا فانٍ، مَنْ كان فانياً لا أريد، أنا عاجزٌ، من كان عاجزاً لا أريد

سلّمت روحي للرحمن، سواه لا أريد
بل أريد،
حبيباً باقياً أريد.
أنا ذرة شمساً سرمداً أريد.
أنا لا شيء ومن غير شيء، الموجودات كلها أريد.
* * *
لا تدعني إلى الدنيا، فقد جئتها ورأيت الفساد.
إذ لما حجبت الغفلة أنوار الحق،
رأيت الأشياء والدنيا أعداءً ضارين.
ذقت اللذائذ، ولكن وجدت الألم في زواله.
أما الوجود، فقد لبسته،
آه لا تسل كم عانيت من الألم في العدم.
إن قلت الحياة، فقد رأيتها عذاباً في عذاب.
نعم، لما استتر نور الحق عني،
إذا بالعقل يتحول عقاباً، ورأيت البقاء بلاء، والكمال هباء،
والعمر ذهب أدراج الرياح.
نعم!
بدونه، انقلبت العلوم أوهاماً.
وأصبحت الحكم اسقاماً، والانوار ظلمات، والأحياء أمواتاً،
والأشياء أعداء.
ولمست الضر في كل شيء.
والآمال انقلبت آلاماً.

والوجود هو العدم بعينه. وصار الوصال زوالاً.
والألم يعصرنى مما لا بقاء فيه.
نعم! إن لم تجد الله فالأشياء كلها تعاديك؛
أذى في أذى، بل هو عين الأذى.
وان وجدت الله،
فلن تجده إلاّ في ترك الأشياء.
فرأيت بذلك النور: الجنة في الدنيا،
وبدت الأموات أحياء.
ورأيت الأصوات أذكاراً و تسابيح.
والأشياء مؤنسة، واللذائذ في الآلام نفسها.
والحياة أصبحت مرآة تعكس أنوار الحق.
والبقاء رأيته في الفناء.
والذرات تلهج بالذكر.
يقطُر من ألسنتها وتتفجر من عيونها؛
شهدُ شهادة الحق" [44].

8 ـ موقع الإنسان بين الكونين

في كتابَي الله تعالى: القرآن، والكون، تقوم الآيات تنادي الأرواح التي سئمتْ لبثها عند مشارف الأرض لتعلوَ وترتقي

---

44 المثنوي العربي النوري ص 289- 290

فوق السماوات السبع، حيث لا يعرف أحد المدى الذي يبلغه نورها ولألأؤها هناك في الأعالي.

فالقرآن ـ كما يرى النورسي ـ كونٌ عظيمٌ إلاّ أنّه مقروء ومسطور و لا يَقِلُّ في عظمته وسعته وامتداده عن عظمة الكون المنظور والمحسوس بسماواته وشموسه ونجومه وأقماره، والإنسان بين هذين الكونين العظيمين يبحث عن جوهره المهيب، ويفتش عن مستقرّ روحه، وموطن إيمانه وأمنه.

فأدعية "النورسي" ومناجاته ترتفع في حشد عظيم من آي القرآن، وآي الكون، وهو جهد جرئ وجدير يبذله الرجل لكي يبقي على التوازن المطلوب بين الكونين، في حين تسعى المعرفة الكونية إلى قهر الروح وتحديد مساراتها بينما هي- أي الروح- تلاحق مغيّبات بعيدة يقصر خيال الكون عن إدراكها.

إنَّ القهرَ الذي يمارسه الكون إزاء الروح، وعدم سماحه لها بمجاوزة محدودياته، أصابَ نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام بالهلع، فصرخ مستغيثاً: **(لا أُحِبُّ الآفلين)** أي أنا زائلٌ فانٍ فلا ينفعني الزائلون والفانون، ولن يكون وقوفي عندهم، بل أريد الحي الذي لا يموت، والباقي الأبدي الذي لا يزول.

فالآيات الكونية ليستْ مطلوبةً لذاتها، بل مطلوبة لِمَنْ هو بعدها، ولِمَنْ هو فوقها، وهو الله تعالى خالق الكون والإنسان ومَنـزلُ القرآن.

وقد بقي "النورسي" طوال حياته يسعى دوماً لتحرير الإنسان من سجنين دنيويين رهيبين يكبّلانه ويحولان بينه وبين إدارة محركاته الروحية للانطلاق نحو الأمداء العالية من القرب الإلهي ومقصود الروح، وموطنها الفطري، وهذان السجنان هما: غرور "أنا" داخل النفس بما يُسبَغُ عليه من صفات لا تليق إلاّ بالألوهية والربوبية، و"الكون" خارج النفس الذي وقف عنده علم بعض العلماء، وفكر بعض المفكرين ولم يتجاوزانه، وفي هذين السجنين هلكَ الكثير من الخلائق ولا زالوا يهلكون.

وفي المناجاة الآتية يحشد "النورسي" مفردات كونية ذات دلالات عميقة تلفت الانتباه إلى الشمولية التي تطبع فكره ووجدانه، فيقول:

"سبحانك يا من أنطق السماء بحمده وتسبيحه بكلمات النجوم والسيارات.

ويا من انطق الأرض بحمده وتسبيحه بكلمات الأشجار والنباتات..

وانطق النبات والشجر بكلمات الأزهار والثمرات..

وانطق الزهر والثمر بكلمات البذور والنواتات..

وانطق النواة والبذر بلسان السنابل وكلمات الحبات..

سبحانك يا من يسبح بحمدك الضياء بأنواره، والهواء بإعصاره، والماء بأنهاره، والأرض بأحجاره، والنبات بأزهاره، والشجر بأثماره، والجو بأطياره، و السحاب

بأمطاره، والسماء بأقماره.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبراس [45] الأنبياء، وزبرقان [46] الأصفياء ونيّر [47] الأولياء، وشمس الثقلين، وضياء الخافقين. وعلى آله نجوم الهدى، وأصحابه مصابيح الدجى" [48].

9 ـ إيمان بلا شوق إيمان بلا حياة

"إنَّ "إيماناً" لا تذكي جَذْوَتَهُ الأشواقُ إلى الله، ولا تُلهبُ حماسَهُ لوعةُ الحنين إلى جمال "الآخرة" ولا يُوري زِنَادَهُ عطشٌ دائمٌ إلى الخلود والبقاء، هو إيمان تقليدي بارد، واعتقادٌ هَشٌ سريعُ التّفتُّتِ والانكسار، تستهدفه سهامُ الأعداء أول ما تستهدف، وتتناولهُ معاول الخصوم أول ما تتناول،

فالمسلمون كلهم ـ إذا حاورتهم ـ مؤمنون بالآخرة، ولكنَّ القليل منهم مَنْ يشتاقُ إليها شوق العاشق الولهان الذي لا يتردَّدُ ـ إذا جَدَّ الجدُّ ـ أن يجعل "دنياه" كلَّها صِداق وفائه، وعربون إخلاصه، وأن يقدِّم حياتَهُ فرحاً بيوم لقائها وساعة وصالها.

والمسلمون كلهم ـ إذا سارِرتَهُمْ ـ مؤمنون بالجنة، ولكن أين الذائبون فيها؟ والملهوفون عليها؟

---

45 النبراس: المصباح.

46 بكسر الزاي والباء : أي القمر.

47 بفتح النون وتشديد الياء: المقصود الشمس.

48 المثنوي العربي النوري ص 334

أين منهم مَنْ أضناه البعاد، وأسهده طول الانتظار؟ وأينَ مَنْ يظمئ نهارَهُ، ويُسْهرُ ليلَهُ، من اجل رضى الله الذي بيد رحمته مفاتيح الجنان؟

والمسلمون كلهم ـ إذا خاطبتهم ـ مؤمنون بالنار، ولكن أين الخائفون المرتعبون منها؟ أين الذين ترتعد فرائصهم من هول عذابها؟ وأين الذين يحسّون وكأنهم مواقعوها بين لحظة وأخرى؟ فيسألون الله النجاة منها، والخلاص من سعيرها بما يرضاه الله من تقواهم وصالح أعمالهم..؟!

ولمَّا كانت الموجودات في هذه الدنيا ـ كما ينظر إليها "النورسي" ـ هي أمثلة مصغرة لوجود أخروي كبير، وأطياف خيال لحقيقة أخروية أعظم، وأشباحاً باهتة لرؤى فكرٍ أخروي غاية في السَعَة والشمول والدقة والعظمة، لذا فإن كل موجود هنا في عالمنا الصغير هذا موصول بما يناظره هناك، وكلُّ معنى هنا مرتبط بمعنى أسمى وأعظم هناك، فالدنيا مرتبطة بالآخرة، وحبُّ البقاء والكمال عند الإنسان هنا يؤكد معنى الخلود والبقاء والكمال هناك، والصُّورُ الذي ينفخ فيه الربيع ليبعثَ من الأجداث مئات الألوف من أنواع النبات والحيوان والحشرات كلَّ سنة، إيماءة واضحة لصُور أكبر، وحشر أعظم يوم القيامة، والحافظة في مُخّ الإنسان وهي بحجم حبّةِ خردل، والتي تحتفظ بشريط مسجل لماضي الإنسان وما وقع له من أحداث، هي مثال مصغر لحافظة أخروية أوسع واكبر

تحفظ سجلاً كاملاً لتاريخ حياة الإنسان على هذه الارض، ليعرض عليه في الآخرة عند مناقشته الحساب.

وليس "النورسي" صاحب قلم بارد يغمسه في مداد فكر بارد، ليكتب ما يشاء وقتما يشاء، إنما هو المعاناة الجريحة المدَّماة التي تنـزف فكراً فيه حرارة الروح، ودفء القلب، وإنما هو السحابة المثقلة بماء الحياة والتي لا يدري أحدٌ متى تبرق وترعد وتغيث، وإن شئتَ فاستمع إليه حيث يقول في وصف حاله عندما كتب "مثنويه"

".. والكلمات إنما تولدت إثرَ جدال هائل ونقاش عظيم مع الفكر، وسط إعصار تتصارع فيه الأنوار مع النيران، فأحسُّ برأسي يتدحرج في آنٍ واحدٍ من الأوج إلى الحضيض، ثم يرتفع من الحضيض إلى الأوج، ومن الثرى إلى الثريا، إذْ سلكت طريقاً غير مسلوك في برزخ بين العقل والقلب، ودار عقلي من دهشة السقوط والصعود، فكلما صادفتُ نوراً نصبت عليه علامةً لأتذكره بها، وكثيراً ما أضع كلمةً على ما لا يمكن التعبير عنه للإخطار والتذكير، لا للدلالة، فكثيراً ما نصبت كلمة واحدة على نور عظيم.." [49].

10- لواء الحمد

---

49 المثنوي العربي النوري ص 35

لقد اُخْتُصَّ نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام من بين الأنبياء عليهم السلام برفع لواء الحمد فوق هامة الإنسانية وبتفتيق ألسنة المؤمنين بشتَّى أنواع المحامد، وبتفجير أفئدتهم بينابيع الشكر والامتنان لله الجواد المنّان، وكان نجاحه في ذلك نجاحاً لا مثيل له في تاريخ الأنبياء، ويكفي أن نعلم بأنَّهُ ρ "علّم المؤمنين كيف يحمدون الله على المكاره التي تنـزل بهم، لأن المكاره حين تنـزل بالمؤمن بقدر مقدور لحكمة مستترة تحت ستار الأسباب، فما هي إلاّ تنبيه أو تذكير أو تعليم أو تأديب لا ينبغي أن يتضجّر أو يجأر بالشكوى منها بل عليه أن يسارع إلى الحمد قائلاً : "الحمد لله الذي لا يُحمَدُ على مكروهٍ سواه".

فالحمد الصادق هو مفتاح الرحمة، حتى أنّ المحامد التي يلهمها له الله يوم القيامة وهو ساجد تحت العرش بخشوع ورهبة ستكون المفتاح الذي تُفْتَحُ به أبواب رحمة الله، والشافعة عند الله لقبول شفاعته في أمته في ذلك الموقف الرهيب والعصيب، إنَّ نبياً يرقى إلى هذا المدى الذي لا يطاله مدى في عبوديته لله، ويسمو هذا السمُوَ في محامده، فيرى في المحن والمكاره التي تنـزل به مِنَّةً توجبُ الحمد جدير بأن يحمل لواء الحمد في هذا العالم، وأنْ يمضي ملتقطاً محامد الأرض من أفواه نباتها وحيوانها، وإنسها وجنِّها ليرفع إلى رب العالمين محامدها بلسانه الشريف"[50].

---

50 أنظر البعد الحسي في الإسراء والمعراج" لكاتب هذه السطور ص36

وحول هذه الذات المحمدية الأحمدية صلوات الله وسلامه عليه. يدير "النورسي" مناجاته وكما يأتي:

"اللهمَّ صلِّ على محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، وشمس هدايتك، وعين عنايتك، ولسان حجّتكَ، ومليك صنع قدرتك، ومثال محبتك، وتمثال رحمتك، واحبّ الخلق إليك، وعلى سائر الأنبياء و المرسلين، وعلى آل كلٍ وصحبِ كلٍ أجمعين، وعلى ملائكتك المقربين، وعلى عبادك الصالحين من أهل السموات والأرضين، برحمتك يا ارحم الراحمين.

سبحانك يا مَن يُسبح بحمدك هذا العالم بلسان محمد عليه افضل صلواتك وأتم تسليماتك.

سبحانك يا من تسبح لك الدنيا بآثار محمد عليه أنمى بركاتك.

سبحانك يا من تسبح بحمدك الارض ساجدةً تحت عرش عظمتك بلسان محمدها عليه أزكى تحياتك.

سبحانك يا من يُسبح لك المؤمنون والمؤمنات بلسان محمدهم عليه صلواتك أبداً سرمدا.

سبحانك أسبّحك بلسان حبيبك محمد عليه اكمل صلاتك واجمل سلامك، فتقبل مني برحمتك كما تقبلته منه" [51].

وعلى لسان رسولنا المصطفى ρ يجري "النورسي" المناجاة الآتية نيابة عن المسلمين جميعاً فيقول مخاطباً رفيقه

---

51 المثنوي العربي النوري ص 387

في إحدى سياحاته الإيمانية:

"هيا بنا يا صاحبي لنذهب معاً إلى تلك الجزيرة، حيث تضم جمعاً غفيراً من الناس. فجميع أشراف المملكة مجتمعون فيها.. انظر فها هو ذا مبعوث كريم للسلطان متقلّد اعظم الأوسمة وأعلاها يرتجل خطبة يطلب فيها من مليكه الرؤوف أموراً، وجميع الذين معه يوافقونه ويصدّقونه ويطلبون ما يطلبه.

أنصت لما يقول حبيب الملك العظيم، انه يدعو بأدبٍ جم وتضرّع ويقول:

"يا من اسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، يا سلطاننا، أرنا منابع وأصولَ ما أريتَه لنا من نماذج وظلال.. خذ بنا إلى مقر سلطنتك ولا تهلكنا بالضياع في هذه الفلاة.. أقبلنا وارفعنا إلى ديوان حضورك.. ارحمنا.. أطعمنا هناك لذائذ ما أذقتنا إياه هنا، ولا تعذبنا بألم التنائي والطرد عنك.. فهاهم أولاء رعيتك المشتاقون الشاكرون المطيعون لك، لا تتركهم تائهين ضائعين، ولا تفنِهم بموت لا رجعة بعده" [52]..

11 ـ الدعاء إلهام رباني

إنّ الدُّعاءَ إلهامٌ رَبَّاني، وأعظم ما يُلْهَمُ به العبدُ من الدّعاء ما يُحْمَدُ به الله ويثنى عليه. وأعظم الثناء ما أثنى به جلَّ وعلا

52 الكلمات ص 52

على نفسه وفي الحديث: (لا أُحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك)[53]. والقرآن إنما هو ـ في جملته ـ ثناءُ منزلِ القرآن على نفسه، ففاتحة الكتاب التي يلزم قراءتُها في كل ركعة من ركعات الصلوات الخمس إنْ هي إلاّ تحميد وثناء وتمجيد، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: "قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله ربِّ العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال العبد: مالكِ يوم الدين، قال: مجّدني عبدي. وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل" [54].

وما ينعكس من القرآن على الأفهام والأقلام، إنما هو ثناء كذلك، وهو بالتالي دعاء أعظم دعاء، ولكون "رسائل النور" عاكسةً لشؤون القرآن ومقاصده، فهي دعاء كذلك، وهذا هو

---

53 مسلم، كتاب الصلاة 751؛ الترمذي، كتاب الدعوات 3415؛ النسائي، كتاب الطهارة 169؛ أبو داود، كتاب إقامة الصلاة 1169؛ ومن أدعيته ρ في سجوده: " سُبُّوحٌ قُدُوسٌ ربُّنا وربُّ الملائكة والروح، أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك".

54 رواه أحمد ومسلم وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة/ جامع الثناء على الله – يوسف بن إسماعيل النبهاني.

سِرٌّ ما أحدثته وتحدثه هذه الرسائل في النفوس من تأثير وتغيير، لذلك اكثر "النورسي" رحمه الله من الأدعية والضراعات، ودعا مَنْ على الأرض، ومَنْ في السماء من موجودات، لكي تدعو معه، وتؤمِّنَ على دعائه، وتتشفع له، فساح يحمل غربته في ملكوت الغيب وعالم الشهادة، مستعيراً ألسنة الكائنات ليرفع من خلالها أدعيته وتضرعاته. فما من دعاء تتحرك به شفتا إنسان إلاّ أمَّنَ عليه سكّان السماء، وخلائق الأرض بلسان الحال، أو المقال.

وأعرض هنا هذه المناجاة النورسية الجامعة الحاشدة كنموذج على جامعية فكره ووجدانه وطابعهما الدعوي، يقول رحمه الله، في المثنوي العربي النوري:

" اعلم! إن عظمة وسعةِ عموم آية (**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومَن فيهنَّ وانْ من شَىءٍ إلاّ يُسبّحُ بحَمْده**) (الإسراء : 44) اقتضتْ تفسيراً، فتوجهتُ إليها فترشحتْ متقطرةً منها في قلبي كلماتٌ مفسرات لها، وسلم مرقاةٍ للصعود إليها. فهي منها واليها. فإن أحببت أن ترشُف تلك القطرات المفسّرات المترشحات من عمان تلك الآية، والنازلات من سموات عظمتها، فاستمع بقلب شهيد ما سيأتي واقرأ معي هذا:

سبحانك ما عرفناك - نحن معاشر البشر - حقَّ معرفتك يا معروفُ، بمعجزات جميع مصنوعاتك وبتوصيفات جميع مخلوقاتك، وبتعريفات جميع موجوداتك..

سبحانك ما أعظمَ سلطانَك وأوضحَ برهانَك!.
سبحانك ما ذكرناك حق ذكرَك يا مذكورُ، بألسنة جميع مخلوقاتك، وبذوات جميع مصنوعاتك، وبأنفس جميع كلمات كتاب كائناتك..
سبحانك ما أجلّ ذكرك!.
سبحانك ما شكرناك حقّ شكرك يا مشكورُ، بأثنية جميع احساناتك على أنظار ذوي البصائر، وبإعلانات جميع نِعَمك في سوق الكائنات على رؤس الأشهاد، وبشهادات نشائد جميع ثمرات رحمتك المُفْرغة تلك الثمرات في قوالب النظام والميزان..
سبحانك ما أوسعَ رحمتَك!.
سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يا معبودَ جميع ملائكتك وجميع مخلوقاتك بجميع أنواع العبادات وأصناف التمجيدات.
سبحانك ما سبّحناك حق تسبيحك يا مَن (**تُسَبّحُ لَهُ السَمــوات السَبْعُ والأرضُ ومَن فيهن وانْ مِنْ شَئ الاَّيُسَبّحُ بحمده)**.. آمنا.. نعم..
سبحانك يا من تُسبّحُ لك الملائكة بأجناسها المتفاوتة، بألسنتها المختلفة، بأذكارها المتنوعة.
سبحانك يا من تُسبح لك هذه الكائناتُ بأفواه عوالمها، وأركان عوالمها، وأعضاء أركانها، وأجزاء أعضائها، وجزئيات أنواعها، وحجيرات جزئياتها، وبفويهات ذراتها وأثير ذراتها؛ بألسنة نظاماتها الحكيمة، وموازينها العالية،

وأحوالها المنظومة، وكيفياتها الموزونة بصُنعك الحكيم.

سبحانك يا من تُسبِّح بحمدك الجنة بأفواه بساتينها بنشائد هي: حورُها وقصائد قصورها، ومنظومات أشجارها، ومتشابهات ثمراتها الموزونة.. كما تسبح لك أشباهُها هنا في ضرّتها.

سبحانك يا من يقلّب الليل والنهار وسخر الشمس والقمر، تسبح لك هذه السموات، بمنظومات بروجها، بأفواه شموسها بكلمات نجومها، بلسان نظامها في ميزانها، وانتظامها في زينتها، وتلألئها في حشمتها، وانقيادها في مسخريتها، وسكونتها في سكوتها، وحكمتها في حركاتها.

سبحانك يا من تُسبِّح لك طبقاتُ الجو بأفواه رعودها وبروقها ورياحها وسحابها وشهابها وأمطارها، بكلمات لمعاتها وقطراتها، بلسان نظامها في ميزانها في غاياتها وثمراتها.

سبحانك يا مَنْ تُسبِّح لك الأرضُ ساجدة لعظمة قدرتك بمحمدها وقرآنها، بأفواه بحورها وجبالها وأنهارها وأشجارها، وبأصوات واهتزازات صوتية - هما حيواناتها ونباتاتها - وبكلمات نورانية وحروف نورية - هما أنبياؤها وأولياؤها - بلسان نظامها وميزانها وحياتها ومماتها، وفقرها ويبسها، وتبرجها وتزينها بأذنك الكريم وصُنعك الحكيم.

سبحانك يا من تسبح لك البحورُ بكلمات - هي: عجائبُ مخلوقاتها.. وبمنظومات نغماتها بلسان نظامها وميزانها

وحكمتها وغاياتها.

سبحانك يا مَن جعل الأرض مهاداً والجبال أوتادا. تسبح لك الجبال بأفواه عيونها وأنهارها واشجارها، بلسان نظاماتها وموازينها وغاياتها ومخازنها.

سبحانك يا من جعل من الماء كل شئ حي. ويا من تسبح لك الحيوانات بأفواه حواسها وحسياتها وجهازاتها وإعشائها وصنعتها وصبغتها وعقولها وقلوبها،بألسنة نظاماتها وموازينها، وبأسئلة استعداداتها واحتياجاتها ودعواتها وتنعماتها، في أوطارها، وتقلباتها في أطوارها وحياتها ومماتها.

سبحانك يا مَن تسبح بحمدك الهوامُ في الهواء عند دورانها بزمزمة هَزَجاتها بشكرك، والطيورُ في أوكارها مع أفراخها بسجعاتها ونغماتها شكراً لك، بلسان نظامهما وميزانهما، وصنعتهما ونقوشهما وزينتهما كما تناديان على إحسانك، وتصيحان على نعمتك بإظهار شكرك في وقت تلذذاتهما بثمرات نعمتك، وتنعماتهما بآثار رحمتك.. كما تسبح بحمدك الحشرات في قرارها بدمدمتها، والوحوش في قفارها بغمغمتها بألسنة نظاماتهما وموازينهما وصورهما وأشكالهما وتنعماتهما الكريمة وتقلباتهما الحكيمة..

سبحانك ما ألطف صنعَك وما أنفذ حكمك!

سبحانك يا مَنْ تُسبح لك الأشجارُ صريحاً بغاية الوضوح عند انفتاح اكمامها، وتزايد أوراقها، وتكامل ثمارها، ورقص

بناتها على أيادي أغصانها؛ بأفواه أوراقها الخضرة، وأزهارها المتبسمة، وأثمارها الضاحكة بلسان نظاماتها وميزانها وطعومها اللذيذة، وألوانها الجميلة، وروائحها اللطيفة، ونقوشها المستحسنة، وزينتها المستملحة.. كما تمجّدك وتنادي على كمال رأفتك، وتصف تجليات صفاتك، وتُعرّف جلوات اسمائك، وتفسر تحببك، وسياستك لمصنوعاتك؛ بما يترشح من شفاه ثمارها من قطرات لمعات جلوات تحبُّبك وتعهّدك لمخلوقاتك..

سبحانك ما ألطف برهانك في إحسانك، وأزين لُطفك في توددك!.

سبحانك يا من تسبح لك النباتاتُ بكمال الوضوح والبيان عند تنوّر ازهارها، وتبسّم بناتها، وانكشاف أكمامها واشتداد حبوبها، بأفواه ازاهيرها وسنابلها بكلمات حباتها المنظومة وبذورها الموزونة بلسان نظامها الأرق وميزانها الأدق.. كما تمجّدك وتعرّفك وتشفّ عن وجه تحببك، وتصف صفاتك وتذكر أسماءك وتفسر توددك وتعرفك إلى عبادك؛ بما يتقطر من عيون ازاهيرها وأسنان سنابلها، من رشحات جلوات توددك وتعرفك إلى مخلوقاتك..

سبحانك ما ألطف برهانك وما أنوَرَه وما أحلاه وما أزينه!.

سبحانك يا من اَنـزل الحَديد فيه بَأس شَديد ومَنافع للناس، تسبِّح لك المعادنُ بأنواعها وأجناسها وأشكالها وخواصها وخاصياتها وفوائدها ونقوشها وتزييناتها، بلسان نظاماتها

المرصوصة وموازينها المخصوصة.

سبحانك يا من تسبح لك العناصرُ باجتماعاتها المنتظمة بأمرك وقدرتك، وتركباتها الموزونة بإذنك وصنعك الحكيم.

سبحانك يا من تسبح لك الذراتُ بفويهات تعيناتها ووظائفها بألسنة نظاماتها وموازينها، وعجزها المطلق في ذاتها مع حملها ـ بحولك ـ وظائف عظيمة، كما تشهد كلُ ذرة منها على وجوب وجودك بلسان عجزها بنفسها عن تحمل ما لا تطيق هي على حملها من وظائفها العالية العجيبة في دقائق نظام الكون. حتى إن كلاً منها كمثل نحلة نحيلة حملت عليها نخلةً طويلة، كما تشير كل ذرة منها إلى وحدتِك بنظر وظائفها وتوجه حركاتها إلى النظام العام المحيط الدال بالقطع على وحدة الناظم. ففي كل ذرة لك شاهدان؛ على انك واجب واحد. وفي كل شأن لك آيتان؛ على انك أحد صمد، بل وفي كل شئ لك شواهد وآيات على انك واجب واحد أحد، صمد جل جلالُك، ولا إله غيرُك، وحدك لا شريك لك" [55].

***

---

55 ص 388-391

النورسي :
الثوابتُ والمُتَغيّراتُ في الدين والحياة..!

1- ميزات المفكر المسلم

من أبرز ما ينبغي للمفكر المسلم أن يتميز به من قدرات، هو النَّفاذُ خلال السواكن القرآنية والسنّة النبوية، والغوص في عالم الكلمة الموّاج بالحركة، والمتلاطم بالمعاني، لاكتشاف الجديد غير المسبوق منها، والتقاط ما تتكشّف عنه من أسرار لم يسبق أحدٌ قبله إلى التقاطها . وبالمُباغتِ الجديد غير التقليدي من هذه الأفكار يَهُزُّ العقول و يَحْفزُها لكي تمارس دورها الجادّ في عملية النهوض الإسلامي المطلوب.

ومن جانب آخر عليه أن يمتلك من قوة الروح، واشتعال الوجدان ، ما يستطيع بهما أن يُلْهِبَ الحماسَ في لقلوب اليائسة ،والمشاعر الباردة ، وأنْ يغدوَ روحاً مُتّقِداً لا ينطفئ أبداً ليأنس به المدلجون وينجذب نحوه السُراةُ.

ولابدّ للمفكر المسلم اليوم من استشرافه لروح العصر، والتعرّف على مسارات العالم وتوجهاته الفكرية والروحية والعلمية ،مع فهم دقيق ومُعَمّق لإشكاليات الحضارة الحاضرة،وما تعانيه من نقائض ومفارقات، وما خاضته من

تجارب، وما سقطت فيه من انحرافات ليس بالضرورة لكونه يحتفظ بحلول جاهزة لإشكالياتها، أو أدوية حاضرة لأمراضها، فهذا ما لا يجرؤ أحد على ادعائه، فإشكاليات الحضارة الغربية وأمراضها تعالجها الحضارة نفسها، لأنها من صنعها هي بالأساس، ولأن جرثومة ما تعانيه اليوم من مشاكل وأزمات كانت تكمن في أساس تكويناتها عندما نشأت وبدأت تنمو و تَتَّسِعُ باتجاه الهيمنة على العالم، واستدراجه بالتدريج لتبني أفكارها ومفاهيمها و أخلاقياتها .

وما "العولمة" التي تنادي بها اليوم إلاّ مظهر من مظاهر هذه الرغبة في الاستحواذ على كوكب الأرض وعلى انتماءات شعوبها الحضارية والدينية والأخلاقية وأذابتها في بودقة حضارة واحدة تمتلك من القوة والعلم والمال ما ييسر لها أسباب هذا الاستحواذ والهيمنة.

-2-

وإذا كان نازعُ التجديد شرطا أساسيا من شروط المفكر النّاجح، فإنّ "**النورسي** "يظلُّ أوفرَ المفكرين حظاً في هذا النَّازع الذي يكاد يشكل محور شخصيته، وأساس فكره.

ففي أمكنة كثيرة من "رسائل النور" يقرن "**النورسي** "بين الجمود في الحياة والفكر وبين الموت والعدم، فالجامد المستكين إلى جموده الراضي به، وغير الراغب في مغادرته،ميت لا يرجى منه نفع، فالحركة أينما كانت و إلى أية جهة توجهت دليل وجود، والوجود خير محض، بينما الجمود

علامة موت وعدم ، والعدم ألم محض وشر صرف.

وقد بلغ من شغفه بالتجديد حدّا جعله يثور على نفسه، ويلقى بها في مهاوي الموت ، ولم يكد ينفض يديه من تراب قبرها حتى استقبل مكانها نفسه الجديدة الناهضة من بين رفات نفسه القديمة، بفكر جديد، وروح جديد، وآمال ومطامح جديدة، وفي معرض إشارته إلى هذا التحول العظيم، والتغير الجريء في حياته وفكره، وللتفريق بين عهدين وزمانين من حياته ، يستعمل اصطلاح "سعيد القديم " إشارة إلى أفكاره القديمة المقبورة، و" سعيد الجديد " إشارة إلى أفكاره الجديدة التي اعتمدها وبشّر بها في رسائله.

وفي هذا الصدد يقول " **النورسي** ":

" اعلم أنّ البطالة والسكون والتّعطّل والتّوقف والاستمرار على طراز لا يتغير من الحياة في الإنسان هو نوع من أنواع " العدم ". والعدم ألم محض، وشرّ صرف، لا يمكن التخلّص منه إلاّ بالصيرورة والتغير والحركة.

ومن هنا كان في الحركة والفاعلية لذّة عظيمة ، والتحول من شأن إلى شأن خير غزير ، ولو كان هذا التحول من "اللاّ ألم" إلى الآلام والمصائب.

فالتأثرات والتألمات حسنة من جهات ، وقبيحة من جهة ، فالحياة التي هي نور "الوجود" تتصّفى ات ، وتتصقل وتتهذّب بالتألمات التي تحرك قوى الإنسان الجسمية والروحية القابلة للآلام ومُساكنة الاوجاع ، وبذلك تتجدّدُ النفس ، وتنتعش

الروح ، وينشحذ الفكر ، وهذا هو الوجود الحق .. " .[56]

وكذلك يرى-أي النورسي - أن الإنسان إنما هو صيرورات دائمة لا تتوقف لمحة واحدة ، تجري مع تيار الزمن فيحدث فيه من التغيير لحظة بعد أخرى ما يحدثه في كل الأشياء التي يمُرُّ بها، أو يمرُّ عليها، فالإنسان إنما هو بناء هذه الملاين من البُرهات التي مرت به وصيّرت تكويناته النفسية والبدنية ، لذا ورد في الحديث :

(جدّدوا إيمانكم بلا آله إلاّ الله)[57] أي مع كل ما يمرُّ بكم من جديد الزمن.

-3-

فالإسلام ليس دينا سكونيا جامدا خاليا من طاقات تحريكية للأذهان والأرواح كما يريد البعض وصمهُ، أو أنه خاو من أي نوازع إبداعية وابتكارية، وقدرة على مطاولة الزمن ومواكبة الجديد من شؤون الحياة والفكر.

وهذه مزاعم باطلة تدّل على نظرة سطحية مبتسرة غير متعمقة للإسلام، كمنْ يرى سكون البحر من الخارج حين يسكن وينسى فوران أعماقه بالحياة ، وفوران باطنة بالمثير من القدرات والطاقات والكنوز والثروات، فكما أنه لا سكونية للروح المتدفقة بأسباب الحياة، فكذلك لا سكونية للإسلام لأنه روح الأرواح كما يقول عنه القرآن : (**وكذلك أوْحيْنا إليْك**

---

56 النورسي – مختارات من المثنوي ص 68 اختيار وتقديم كاتب هذه السطور.

57 المسند 2 / 359 رقم الحديث 8695.

روحا منْ أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكنْ جعلْناه نورا نـهدي به من نشاء من عبادنا و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم)(الشورى:52) . والروح خارق عظيم للزمان و المكان، وطاو يطوي الزمان والمكان تحت جناحيه ولا يطويانه والروح شعلة حياة فوارة موارة، تتفجر بعوامل الخلق والإيجاد، والمحو والإثبات والروح بعد ذلك قوة جبارة قهارة، ونار محرقة لهشيم الضعف البشري، والجمود الذهني ،و الخمود النفسي. هكذا هو الإسلام في حقيقته وجوهره، وما يتراءى على سطحه من سواكن فهو كسكون الرواسي الثوابت، تبدو للرائي وكأنها كتل ثقيلة مصمتة غارقة في سكينة وقور، بينما تثور أعماقها بالحمم واللهب، ومصهور الحديد و الذهب، يقول جل شأنه:

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) (النمل: 88) ، وكما أن الجبال هي أوتاد خيمة الأرض تمسكها وتحفظها من الانفلات والتطاير في الفضاء كما يقول الجغرافيون، فكذلك ثوابت الإسلام هي الرواسي العقيدية التي تشد الإسلام ولا تتركه ينفلت في فضاءات العالم دون ضوابط تنظم حركته، وترسم أمداء منطلقه.

وفي القرآن الكريم إيماءات إلى أن هذا الدين لا ير فض شيئا كما يرفض الجمود على حال واحدة لا تتغير ولا تتبدل، ففي قوله تعالى :(كل يوم هو في شان) (الرحمن:29)، ومضة موحية، ولمعة مضيئة، وهزة موقظة للمسلم لكي لا

يستنيم لشأن واحد من شؤونه الروحية والفكرية، وأن يروض نفسه على الانتقال دوما من حاله الذي هو فيه إلى حال هو أعظم وأرقى.

ومن علوم القرآن المهمة التي لا يستغنى عنها أحد من المعنيين بالتفسير، علم الناسخ والمنسوخ، الذي تشير أليه الآية الكريمة: (**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها**)(البقرة: 106). **"**فما ننسخ من آية أو ننسها: أي ما نبدل من حكم آية فنغيره بآخر، أو ننسها يا محمد: أي نمحها من قلبك، نأت بخير منها أو مثلها،أي: نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل والآجل إما بر فع المشقة عنكم أو بزيادة الأجر والثواب لكم **"**.[58]

وأستدرك فأقول :إنه ليس من غر ضنا من هذا الذي عر ضناه آنفا تنصيب أحد كائنا من كان على سدة التشريع فوق شرع الله ورسوله ليثبت ويمحو ما يشاء من أحكام القرآن والسنة، معاذ الله ألف مر ة، فهذا ما لا يقول به مؤمن صحيح الإيمان، لأن هذا الحق لا يمتلكه إلا مُنـزِل القرآن والمُنْـزَلُ عليه القرآن، وإنما قصدنا الأساس الإشارة إلى حيوية هذا الدين ومرونته وقدرته على التكيف مع وقائع الحياة ومجريات الأحداث، والواجب الحتم على أصحاب الأقلام في هذا العصر الحضاري المعقد الإفادة من هذه الإيماءات والإشارات في

58 محمد على الصابوني – صفوة التفاسير ص 16

بناء الجديد من الأفكار، واستنباط الجديد من المعاني والمقاصد التي تسهم في الكشف عن التوجه الحضاري لهذا الدين.

ومن المحزن أن العالم الإسلامي على سعته وامتداده لم يعرف-ومنذ قر نين من الزمن وحتى اليوم_ إلا القليل من المفكر ين من أصحاب الدعوات الذين استطاعوا أن يتركوا بصمات تجديدية قوية و واضحة على مجمل الفكر الإسلامي العام.

وقد يمر العقد والعقدان والثلاثة قبل أن نحظى بمفكر إسلامي جيد، غير أننا نحظى في الحقبة الزمنية نفسها بعشرات وربما بمئات من الوعاظ الجيدين.

ولا أحد يستهين بأهمية الوعظ والوعاظ وبما يمكن أن يتركوه من آثار حسنة على أخلاقيات الناس وسلوكياتهم، إلا أن نهضة الإسلام الحضارية- وكأي نهضة أخرى- لا يصنعها الوعظ والوعاظ، بل يصنعها الفكر والمفكرون.

فالمفكر الذي يعجز عن تحريك نوازع التفكير التجديدي في أذهاننا مفكر فاشل حتى لو كانت مؤلفاته تملأ رفوف مكتبة كاملة. وفي الأعمال الفكرية الرصينة لا يهمنا الكم بقدر ما يهمنا الكيف، فقد اشتهر مفكرون من الشرق والغرب بعمل يتيم واحد أمضوا سنوات عدة في تأليفه ثم خر جوا به إلى عالم الفكر والثقافة- بعد غياب طويل- فأحدثوا به من التأثير في الأذهان والأرواح ما ظل مقرونا بأسمائهم حتى يومنا هذا.

4- النورسي المجدد

والإمام النورسي رحمه الله، واحد من هؤلاء المفكرين المجددين ممن حاز جملة من أبرز ما ينبغي للمفكر المجدد أن يتميز به مما أتينا على ذكره في صدر هذا الكلام، فقد بلغ مجموع ما ألفه من "رسائل النور " عشرة مجلدات يمكن اعتبارها كتابا واحدا، لأنها وإن كانت متعددة الاهتمامات غير أنها تصب في الأخير في اهتمام واحد هو " الاهتمام الأم " تتشعب منه وتعود إليه وهو "الإيمان " الذي كان من اكبر همه تعزيز مواقعه في الذهن والوجدان، وتبديد الشكوك والأوهام المعششة في أدمغة أولئك الواقفين في الجانب الضد من الإيمان والإسلام.

والإيمان بالله واحدا أحدا فردا صمدا، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله، وإن الموت حق، والبعث والحشر والنشر حق، والجنة حق، والنار حق، هذا الإيمان هو الثابت من القرآن والسنة، تقوم عليه قواعد الإسلام، وتتجذر فيه أصوله وثوابته.

وقد عالج النورسي هذه الثوابت بنظرة جديدة، ترى في غور الساكن الثابت عالما فوارا بالحركة، موّاجاً بالخلق والحياة، شأنه شأن كل كائن وموجود في هذا الوجود، قوام وجوده الحركة، ينعدم بانعدامها، ويموت بموتها.

ومن منطلق هذه النظرة الجديدة التي ترى الحركة دستورا شاملا كما يحكم الحياة الوجود فهو يحكم ثوابت العقيدة كذلك، ولكن ليس بالانتقال من حال إلى حال، أومن موقع إلى غيره،

بـل بحركة ما تبثه الثوابت في الذهن من مختلف المعاني،وما ترسله من مختلف الإشارات والإيماءات،فحركة ثوابت الإيمان ذهنية قلبية روحية، إلا أنها أعظم عنفوانا في حركتها في النفس الإنسانية من حركة الموجودات خارج الذهن والوجدان.

وبعض ثوابت الكون كانت حجة إبراهيم عليه السلام على " النمرود " طاغية زمانه حين تحداه :(**إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر**)(البقرة:258) فاعتياد النظر على ملازمة هذه الثوابت الكونية كل يوم لا يعني تعطيل العقول عن البحث فيها للكشف عن المزيد من النواميس المهيمنة على حركات الكون و ثوابته، ولا أظن أحدا تبلغ به الحماقة إلى حد القول بالاستغناء عن الشمس و إسقاطها من حياة البشرية، لا لشيء إلا لكونه اعتاد على رؤيتها تشرق من جهة وتغرب من جهة أخرى، هذا دأبها منذ ملايين السنين وحتى يوم الناس هذا وإلى ما قبيل قيام الساعة.

وهكذا لا يمكن أن تكون ثوابت الإيمان مبررا لإهماله وإسقاطه من الحياة العقلية والوجدانية للبشرية بحجة السكونية والثبوتية، فما اعتدنا أن نراه كل يوم و كل ساعة قد يجعلنا نألفه، غير أننا لا نعرفه، فالألفة لا تعني المعرفة كما يقول "النورسي " فما أكثر الأشياء التي نألفها ثم نموت عنها ولم نكد نلامس منها إلا القليل مما يطفو على سطحها.

فما نألفه من " الإيمان " غير ما نعر فه، فالمعرفة والمعر فة العميقة الدقيقة- هي ما نحتا ج إليه في هذا العصر، وقد بذل " النورسي " غاية جهده في رسائله لكي يوقفنا عليها، ويعرفنا بها. يقول رحمه الله : " إعلم أن من أعم أسباب ضلالة فكر البشر ظن المألوف معلو ما مع أن الألفة تتضمن الجهل المركب، فبحكم الألفة لا يتأمل الناس في العاديات من نوع التجليات السيالة، كمن لا ينظر من مجموع البحر مع ما في بطنه من الحيوانات إلى تموجاته بالهواء، وتلألئه بشعاعات الشمس فيستدل بهاتين الصور تين فقط على عظمة مالك البحر وصانعه جل جلاله.

ويمضي فيقول : " إعلم أن أكثر معلو مات الإنسان الأرضية، ومسلماته، بل بديهياته مبنية على الألفة، وهي مفروشة على الجهل المركب، ففي الأساس فساد أي فساد. فلهذا السر توجه الآيات أنظار البشر إلى العاديات المألوفة، وتثقب نجوم القرآن بأنوارها حجاب الألفة، وتأخذ بأذن الإنسان وتميل بر أسه، وتريه ما تحت الألفة من خوارق العادات في عين العاديات ".[59]

فالقلم العلوي لا يتوقف لمحق واحدة عن السريان، فهو يخط سطوره على صفحة الكون، ووجه الطبيعة والحياة. وعلى الرغم من نصاعة بيان هذه الأسطر إلا أنها تتأبى على

59 المثنوي العربي النوري ص

أصحاب النظر الكليل، والفهم العليل، ولا تلقي بمكنونات أسرارها إلا لأولي الألباب وأصحاب البصائر من المنشدهين بمعجزة الخلق، والمندهشين بداينمية الحياة، والمنقبين عن الفاعلية الخفية التي تنشئ العوالم وتبني الأكوان، وتمد الوجود بأسباب الدوام، وفي الوقت نفسه تمحو العتيق، وتهدم القديم، وتأتي بكل جديد، ساعية لوضع الإنسان وجها لوجه مع الموجودات كما هي، دون حواجز فكرية، أو تصورات ذهنية، مهما بلغت من صدق فإنها دون ما يمكن أن يستوفيه منها بالتعاطي المباشر، والفهم عنها عن معاينة وقرب.

-5

إن الاستماع إلى عقل عميق وحصيف متعقل لا شيء أمتع منه عند ذوي العقول الجادة، فالأعمال الفكرية الرصينة كان لها على الدوام إسهامات مهمة في إنشاء البنى التحتية للذهنية الإسلامية العامة، والأرضية الخصبة لمنطلق المسلمين في التفكير فيما يعن لهم من قضايا الإيمان والإسلام،فبقدر ما نحتاج إلى الأفكار الجديدة في إرساء أركان هذه القاعدة الفكرية، إلا أننا أشد حاجة، وأكثر افتقارا إلى من يحرك بقلمه سواكن العقول، وينهض هواجع الأرواح، فقلم المفكر المجدد ينبغي أن يتحول في يده إلى " الصور " الذي ينفخ فيه لإنهاض الموتى من مدافن الأرواح" والنفير " الذي يبعث الحياة في موات الأذهان، بل وينشؤها إنشاء آخر، ويخلقها خلقا جديدا لمواجهة تحديات العصر بثقة عالية، ومن غير

الشعور بأي دونية إزاء أعلى صروح الفكر، وأعظم نتاجات الحضارة.

وهذا ما فعله علماؤنا القدامى، ومفكرونا الأفذاذ حين واجهوا حضارات ما قبل الإسلام، فحافظوا على فاعلية العقل المسلم، وعلى تمام صحوته ونشاطه إزاء تحديات تلك الحضارات.

فتعاملوا معها أخذا وعطاء دون أن يقعوا في شرك التخلي عن أية ثابتة من ثوابت الإيمان والإسلام.

والعملية التحريكية لسواكن العقول، وهواجع الأرواح، هو ما كرس لها **"النورسي"** قلمه وأعطاها من جهده وفكره الشيء الكثير، وكان أكبر همه إغراء " العقل المسلم " باستعادة ما فقده-منذ أمد بعيد-من فاعلية في الأخذ والعطاء، والتي خسر بغيابها وزنه الوجودي والتاريخي، وغدا ريشة في مهب رياح العالم، لا أثر له في ميزان التاريخ وأحداثه، ولا قدرة له على التأثير في مسارات العالم الفكرية والروحية والعلمية، وكما ينطفئ الكون، وتموت الحياة، وينعدم الوجود بانعدام حركته الفاعلة، هكذا ينطفئ الإنسان، وتموت حياته الفكرية، وينعدم وجوده الحضاري حين يركن إلى السكون والجمود.

وشئ آخر تجدر الإشارة إليه، والتنبيه عليه، وهو أن الأفكار المصنّعة في عقول الآخرين، والمصدّرة إلينا في علب فكرية جاهزة لا تجدينا نفعاً إلا بقدر ضئيل، حتى ولو كانت

متجانسة مع أفكارنا ومتطابقة مع آرائنا، وعلى الرغم من ذلك لا نحس بالتعاطف معها بشكل صميمي كما نتعاطف مع أفكارنا، لأننا لم نشارك أصحابها في صنعها.

فالمفكر الناجح هو الذي يحس بوجودنا ويحترمه، ويشركنا معه في التفكير، ويشعرنا أنه إنما يحاورنا ولا يعلّمنا، ويسألنا ولا يتغافل عنا، ويأخذنا معه في رحلة معرفية كشفية في مجاهيل عقله وروحه، ويوحي إلينا أن ما كشفه وخلص إليه هو نفسه الذي يمكن أن نكتشفه ونخلص إليه.

وهذا الذي ذكرناه في صفة المفكر الناجح لا نلمسه إلا عند اقل القليل ممن نقرأ لهم، ومن هؤلاء القلة إمامنا **النورسي** رحمه الله، وسر تفوقه في هذا الشأن يعود إلى كونه قد أملى معظم رسائله إملاء على الكتبة من طلبته، فهو يحاضرهم بها شفاها، ويشركهم في التفكير معه، ويسألهم ويسألونه، ويحاورهم ويحاورنه ولهذا السبب نشعر ونحن نقرأه وكأنّه حاضر معنا، يحدثنا كما كان يحدث طلبته، من القلب إلى القلب،ومن العقل إلى العقل، وكأنه مقيم بيننا، حاضر مجلسنا، ساكن وجداننا، فلا نمل ولا نسأم ونحن معه في تفكيره خطوة بخطوة، وساعة بساعة.

6 ـ الخلاّقية الفاعلة

وإشارة النورسي رحمه الله – في العديد من الأمكنة في رسائله إلى الخلاقية الفاعلة، وآثارها البيّنة في حركة الكون والحياة وفي ديمومية بقائهما إنما يهدف إلى لفت نظر المسلم

إلى الناموس الحركي الأعظم المهيمن على الوجود بأسره، وحفزه لاستنهاض قوى الخلق والتجديد في نسيج عقله ووجدانه باعتباره المعنّي بالأساس من تسخير الكون له، فيلزمه من الحركة والتجديد ما يلزم الكون منهما.

فالتلقي الرأسي والمباشر عن نصوص الوحيين العظيمين "الكتاب والسنة" – من دون المرور بالحشود الهائلة من شروحات العلماء وتفسيرات الفقهاء والمفسرين كما فعل النورسي ، وكما دعا إليه الدكتور محسن عبد الحميد في العديد من كتبه الأخيرة، إن هذا التلقي الرأسي والمباشر اكثر قدرة على تنشيط الذهن، وعلى اكتشاف الجديد والمبتكر من المعاني والمقاصد الإيمانية والإسلامية التي تكون قد غابت عن أذهان الأقدمين من علمائنا ومفكرينا. فالمفكر المجدد لا ينبغي له التعامل مع نصوص الكتاب والسنة بعقل ماضوي موروثي تقليدي، بل بعقل حضوري مستقبلي، ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال الدعوة إلى إغفال الموروث وجعله وراء ظهورنا، بل من الزم اللوازم النظر فيه، والإفادة منه، بقدر أو بأخر بشرط عدم الوقوف عنده، والتلقي عنه، دون الأخذ بنظر الاعتبار متغيرات الزمن الفكرية والعلمية والحضارية.

فالوقوف على الموروث التاريخي والحضاري وعلى الرغم مما يزخر به من جوانب مشرقة، ونماذج إنسانية عالية في الخلق والسلوك والبطولة، وعلى الرغم مما قدمه لفكر

العالم من تصحيحات في الألوهية والربوبية وشرائع الأديان السابقة، وبما أسهم به من علوم وفلسفات اقتاتت عليها شعوب الغرب قروناً عديدة، فعلى الرغم من هذا الذي ذكرناه فان الوقوف عند هذا الموروث والعكوف عليه، والاستغناء به، وعدم الرغبة في تطويره وتجديده وتجاوزه موت للعقل، وتعطيل لقواه الابتكارية، وتجميد للذهن وشلل عام له، عانت منه الأمة الإسلامية، الكثير من الإشكالات في هذا العصر الذي تتزاحم فيه قوى التجديد والتغيير وتتسابق للاستحواذ على عقل الإنسان وصياغة أفكاره ومعتقداته.

- 7 -

ويرى النورسي أن الفاعلية وعملها في الخلق والإنشاء والتجديد والإبداع إنما هو فيض يفيض به العقل المبدع الحي الفاعل، وهو دليل حياة، وعلامة قدرة وعلم وحكمة، وما يصحب العقل من لذة في العطاء هي كفاء إنجازه، وكما يحسُّ الرسام العظيم بالزهو والإنتشاء فور انتهائه من أخر لمسة من لمساته على لوحته الفنية، هكذا يكون إحساس العقل بإبداعاته، وإحساس كل المبدعين، وهو أجرهم المعجل وجائزتهم القريبة المزجاة.

وكما يكون شعور الفنان المرهف بما تضطرم به روحه من معاني الجمال الدافع الذي يدفعه للرسم، تعبيرا عن هذه المشاعر، كذلك العقل العبقري المبدع يدفعه إلى الإبداع تزاحم

الأفكار فيه، وإمتلاؤه بها حتى تتحول إلى شلال عظيم تبحث لها عن مكان في عوالم الأفكار والثقافات خارج عقله.

ويربط النورسي بين الملموس من فاعلية خلاقية تجديدية في الكون والحياة، وبين ما ينبغي أن يكون عليه عقل المسلم من فاعلية خلاقية تجديدية في فكره الإيماني سواء بسواء، لان ما يحكم الكون من سنن هي نفسها التي تحكم الإنسان، فإذا ندّ عنها صار موجوداً ناشزاً بين الموجودات ومغالباً لناموس كوني ما غالبه أحد إلا غلبه وتركه صريعاً مقهوراً.

وفي الآتي من كلام النورسي إشارات إلى هذه المعاني حيث يقول:

"سؤال: ما سر هذه الفعَّالية المحيرة للألباب الجارية في الكائنات وما حكمتها؟ ولمَ لا تستقر هذه الموجودات الدائبة الحركة بل هي في تجدد وتغير؟

الجواب: أن شخصا ما إذا أدّى وظيفة فطرية، أو قام بمهمة اجتماعية، وسعى في إنجازها سعيا حثيثا، فلا شك أن المشاهد يدرك أنه لا يقوم بهذا العمل إلا بدافعين:

الأول: هو المصالح والثمرات والفوائد التي تترتب على تلك الوظيفة والمهمة وهي التي تسمى بـ "العلة الغائية".

الثاني: أن هناك محبة وشوقا، ولذة يشعر بها الإنسان أثناء أدائه لتلك الوظيفة، مما يدفعه إلى القيام بها بحرارة وشوق، وهذا ما يسمى بـ "الداعي والمقتضي".

مثال ذلك: أن الأكل وظيفة فطرية يشتاق الإنسان إلى القيام بها بدافع من لذة ناشئة من الشهية، ومن بعدها فهناك إنماء الجسم وإدامة الحياة كنتيجة للأكل وثمرة له".

ويمضي فيقول: "كما أن الفعالية الموجودة في المخلوقات قاطبة نابعة من لذة ومن شهية ومن شوق، بل أن في كل فعاّلية منها لذة، بل كل فعالية هي بحد ذاتها نوع من اللذة، (ولله المثل الأعلى) فهناك شفقة مقدسة مطلقة، ومحبة مقدسة مطلقة تليقان به سبحانه، وتلائمان غناه المطلق، وتعاليه وتقدسه وتوافقان كماله المطلق، ثم أن هناك شوقاً مقدساً مطلقاً يليق به آتٍ من تلك الشفقة المقدسة والمحبة المقدسة، وهناك سرور مقدس ناشئ من ذلك الشوق المقدس وهناك لذة مقدسة لائقة به –إن جاز التعبير- ناشئة من ذلك السرور المقدس، ثم إن الرحمة المطلقة النابعة من تلك اللذة المقدسة، وما ينشأ من المخلوقات قاطبة من رضى عام، وكمال شامل من انطلاق استعداداتها من القوة إلى الفعل وتكمّلها ضمن فعالية القدرة.. فما ينشأ من كل هذا من رضى مقدس مطلق –إن جاز التعبير- وافتخار مقدس مطلق.. كل ذلك بما يليق ويخص الرحمن الرحيم سبحانه يقتضي فعالية مطلقة وبصورة لا تُحدَّ" [60]. "فأسماء الله الحسنى، وتجلياتها في الموجودات، وانعكاساتها في مرايا الكائنات، وقيام هذه الكائنات بها، واستمداد ما يحفظ وجودها

60 المكتوبات – المكتوب الثامن عشر – ص 109 -110

منها، واكتساب نورانياتها من أنوارها، والتماس الحياة من منابع حياتها، وانتساب المعارف والعلوم والفنون إليها، وتعلقها بأسرارها.. هو ما يريدنا النورسي أن نكون على علم به ضمن مبحثه المهم عن "أسماء الله الحسنى" وعن إشعاعاتها وتأثيراتها في الوجود والحياة، وهو لا ينفك يغرينا بالتعايش مع هذه الأسماء في شؤون الحياة التي نحياها والواقع الذي نعيشه.

وقد كتب النورسي ثلاثين ومائة رسالة أسماها "رسائل النور" تقصّى فيها آثار الأسماء الإلهية الحسنى في الإنسان والوجود والأكوان، وتلمّس منابعها في المعارف والعلوم والفنون، واستقرأ تجليات أنوارها على الأشياء والموجودات، وتتّبع أسرارها في الخلق والإيجاد، والموت والحياة، ووقع على أعاجيبها في الحشر والنشر والجنّة والنَّار والرحمة والعذاب، وأثبت بما لا يقبل أدنى شك بأن من وراء هذا كله إرادة وهدفاً وغايةً، وعلماً وحكمةً، وعدلاً وجمالاً وجلالاً، وأحدية لا تقبل نداً ولا شريكاً، وقدرةً مطلقةً لا يعجزها شئ، وقدَراً مرسوماً، وقضاءً مبروماً وآجالاً محتومة، وخلوداً أبدياً -بعد الموت- في الجنة أو النار أعاذنا الله منها بكرمه، وصرفنا عنها برحمته. وهذه هي الأغراض والموضوعات نفسها التي دارت عليها وحولها آيات القرآن الكريم وسوره فتجلي الاسم الأعظم – "الحيّ" مثلاً – على الموجودات – والتأثير فيها، أنهضها من رقدة العدم، وأزاح عنها أستار

الغيوب، وأكسب كلاً منها نوعاً من أنواع الحياة التي لا حصر لأنواعها وأشكالها ودرجاتها، وألبس كل موجود – بحسب مكانته المقدّرة من الموجودات – ثوب الحياة المقدّر له، والمناسب لماهيته ومهمته في هذا الوجود، بحيث يستطيع بهذه الحياة إدراك الخالق – نوعاً ما من الإدراك – ويتوجّه إليه بالحمد والتسبيح والشكر بدليل قوله تعالى **(وإنْ مِنْ شَىْءٍ إلاّ يُسَبّحُ بحَمْدِهِ)**

والحياة في الكائن الحي ليست هي مجرد حياة – كما يقول **النورسي** – وإنما هي حياة يخامرها الجمال، ويمازحها اللطف، وتندرج فيها الرحمة، وتتخلّلها العناية، ويتظاهر فيها الإتقان ودقة الصنعة، وتنطوي على العلم والحكمة، وتشير إلى الإرادة، وتومئ إلى القصد والمغزى.. أي أن حياة **"**الكائن الحي**"** تتجلى فيه جميع الأسماء الإلهية الحسنى وصفاتها الجمالية والجلالية العليا**"** .[61]

8 ـ المؤمن والأسماء الإلهية الحسنى

ورغبة المؤمن بالارتقاء إلى كمال الإيمان المرجو، تدفعه بديهياً باتجاه التخلق بأخلاق هذه الأسماء الإلهية المقدسة، والارتواء من معانيها، وتلبس صفاتها، والاستقواء بها والاستغناء بمعطياتها ثمّ أخذها من يد الغيب بقوة كما يأخذ العطش المشرف على الهلاك قدح الماء من اليد الممتدة به

---

61 أنظر مقدمة (الاسم الأعظم) لكاتب هذه السطور –ص 14-16 –مطبعة الزهراء الحديثة ـ الموصل

إليه، وكما يتعلق المحتضر بأسباب الحياة والتشبث بها بكل ما لديه من قوة.

فهذه الأسماء هي روح الحياة، انبثقت الحياة منها، وتفجرّت من معانيها، وأي مظهر من مظاهرها وأي معنى من معانيها، إنما هو تجلٍ من تجليات اسمه تعالى "الحي" على الموجودات كما يقول "**النورسي** ".

وقد كان تأثير هذا الاسم "الحي" عظيماً في النبي "يحيى" عليه السلام، حيث جاء في القرآن الكريم: "**يا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقوةٍ**" (مريم:12)، وقد تكلم المفسرون في معنى اسمه "يحيى" فقال مُقَاتِل: "أُشْتُقَ اسمه من اسم الله تعالى "حي" فسمّي بيحيى" .[62]

وفي صفوة التفاسير: "**يَا زَكَرِيَّا إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ "يَحْيَى" لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سمياً**"(مريم:7) أي: لم يُسَمَّ أحد قبله بـ "يحيى) فهو اسم فدّ غير مسبوق سمّاه تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه" .[63]

فتأثير هذا الاسم المشتق من اسمه تعالى "الحي" على كيان هذا النبي عليه السلام، كان عظيماً حيث ملأ وجوده حياة وأترع كيانه قوة، وبهذه القوة أمر أن يأخذ "كتاب" وهو التوراة، وأن يضمها إليه بشوق، ويتدارسها بلفة.

---

62 انظر تفسير القرطبي – الجزء الرابع – سورة آل عمران – ص76

63 محمد علي الصابوني- صفوة التفاسير – سورة مريم – ص194

ففي اسمه تعالى "الحي" أسرار وقدرات وطاقات وآثار في حياة الإنسان الإيمانية، ولعلَّ هذا هو السرّ الذي دفع نبينا محمداً ρ ليكنّي الصحابي الجليل "صهيب الرومي" بـ "أبي يحيى)9 الذي لم يكن لديه ولد يكنّي به، وكأنه عليه السلام أراد بهذه الكنية مواساة "صهيب" على حرمانه من الولد أولاً، وأن يجعله يشعر بما توحيه هذه الكنية في نفسه من قوة الحياة الفوّارة بمعاني الإيمان الذي لا ينضب ثانياً، وأنه وإنْ كان لا نسب له يُذكر بين الأنساب إلا أن نسباً إيمانياً لا ينسى سيظلُ يذكر به بين أنسباء الإيمان على مرّ الدهور والأزمان. وفي تفسير "القرطبي" الجامع لأحكام القرآن يقول تعالى:

" ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأنْتُمْ الأعلونَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)9 (آل عمران: 139)، وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه، فقد قال لموسى عليه السلام: **"إنَّكَ أنْتَ الأعلى"**(طه:68) وقال لهذه الأمة: **"وأنْتُمْ الأعْلَونَ"** وهذه اللفظة مشتقة من اسمه "الأعلى" فهو سبحانه "العلي" وقال للمؤمنين: **"وأنْتُمْ الأعْلَونَ".**[64]

ففي اشتقاق "الأعلون" من اسمه تعالى "العلي" إشعار للمؤمنين بانتسابهم إلى "العلي الأعلى" وهذا الانتساب يملأهم عزة وقوة وزهوا وتحديا لكل قوى الأرض التي تسعى

---

64 انظر تفسير القرطبي – الجزء الرابع – سورة آل عمران – ص 216-217

للنيل منهم والعلو فوقهم، وإنهم بهذا الاسم الإلهي يعلون فوق كل من يريد العلو عليهم.

ولا يزال في مقدور هذه الأمة – رغم ما اعترى روحها من وهن، وما أصاب فكرها من نصب – أن تستعيد دورها الإيماني العظيم في هذا العالم، وأن يعود قرأنها من جديد العين التي تبصر البشرية من خلالها أخطاء معتقداتها في الألوهيات الكاذبة، والرّبوبيات الموهومة، ومهما قيل ويقال عن هجران هذه الأمة لقرآنها إلا أنها تبقى أمة القرآن، تتأثر به بقدر أو بأخر.

ويبقى القرآن فاعلاً مشعاً مؤثراً مثله مثل، أعظم حقائق الوجود تفعل وتؤثر بغير حاجة إلى وسيط، وهي قادرة على الانتصار لنفسها بنفسها وإن لم ينتصر لها أحد، وكما يعجز أي عنصر مشع من عناصر الطبيعة عن كتمان إشعاعه، والكف عن النفاذ فيما يحيط به من أشياء، فكذلك القرآن، هذا النور العظيم – ولا مشاحة في المثال وله المثل الأعلى – لا يتصور أن يتوقف لمحة واحدة عن إطلاق أنواره وشعاعاته وإشاراته وآياته في أي زمان ومكان، وتحت أي ظرف من الظروف، ولعلَّ الإشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: **"إنَّا نَحْنُ نـزلْنا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"**(الحجر:9).

إذا تخلى أهله عن حفظه في نفسه وفي علمه ومعتقده، ورغم ذلك يبقى ملاذهم الأخير، وحصنهم الحصين حين تدهمهم الأخطار وتستقبلهم التحديات.[65]

ولهذه الأمة تجارب كثيرة عبر تاريخها الطويل في لجوئها إلى "القرآن" والتحصن به عندما تدهمها أخطار مخيفة، وفواجع ماحقة، فالعولمة الشيوعية – مثلاً – التي قادها الاتحاد السوفيتي منذ نشوئه وحتى انهياره وتفككه في العقد الأخير من القرن المنصرم، وإن كانت قد نجحت في أقطار معينة من العالم إلا أنها أخفقت إخفاقاً ذريعاً مع شعوب قفقاسيا المسلمة، فظلت هذه الشعوب تقاوم إلحاد هذه العولمة بما كانت تملك من آثار إيمانية وقرآنية شاحبة، فقد كان البعض من أبنائها لا يعرف من الإسلام إلا كلمة الشهادة، والبعض الآخر لم يحفظ من القرآن إلا آيات وكلمات يرددها في صلواته من غير أن يدرك معانيها ومع ذلك عجزت هذه العولمة عن حمل هذه الشعوب على التخلي عن هويتها الإيمانية على الرغم من كل ما استعمل، معها من وسائل الترهيب والترغيب.

ولا أظُنُّ العولمة الرأسمالية المعاصرة سيكون حظُّها من إيمان المسلمين ومن أخلاقياتهم وخصوصياتهم الثقافية والحضارية أوفر حظاً من أختها العولمة الشيوعية من قبلها، على الرغم من كل ما تملكه من قوة جبّارة ومال وعلم،

---

65 انظر (اللوامع) ص 876 - الكلمات

وتقنيات معلوماتية رهيبة، ووسائل اتصالات تكاد تصل حدَّ خوارق المعجزات، حتى غدا العالم بين يديها وتحت أنظارها كالكرة التي يرسم عليها الجغرافيون خارطة العالم لطلاب المدارس، لا سيما وأنَّ هناك صحوة على مخاطر هذه العولمة من قبل الشعوب، ومن قبل عقلاء العالم ومفكريه وذوي الرأي فيه. ومن بعض رجال المال والاقتصاد المرموقين في أنحاء مختلفة من العالم، وإنَّ هذه الصحوة تمتدّ اليوم لتشمل قطاعات عريضة من الشعوب الرأسمالية نفسها، فبدأت تقاومها وتندّد بها وتقف بالضدّ منها، وتتظاهر ضدّها، وتعمل جاهدة على إحباطها. وما دام الضمير الإنساني قد أصابه التحجر في هذا العصر، والوجدان الديني أقفر وأجدب، وما دامت دواليب الاقتصاد العالمي تدور بمعزل عن أية مُثُلٍ أخلاقية وأدبية فلن تحظى الشعوب المسلوبة والمسحوقة بالخلاص الذي تطمحُ إليه من العولمة المعاصرة، وسيظل شمال الكرة الأرضية يحظى بالمزيد من الرفاهية والغنى، بينما تتفاقم أزمات الجنوب ومشاكله المعيشية، ويزداد فقراً وجوعاً، ولسان حال الشمال يقول للجنوب:

إفْتَقِرْ أنتَ .. لأغنى أنا.
إجهلْ أنتَ .. لأزداد علماً أنا.
جُعْ أنتَ .. لاشبعَ أنا.
إتعبْ أنتَ .. لاستريحَ أنا.

ولا باسَ من موتكَ .. إذا حييتُ أنا.[66]

ويجمل النورسي بأسطر قليلة أصلَ العّلة وأساسها، ويترك المجال لمن يأتى بعده لكي يفصّل المجمل، ويبنى عليه، ثم يشرع في التصدي والمعالجة.

يقول "النورسي ":

"إن معدن جميع الاضطرابات والقلاقل والفساد واصلها، وأنّ محرك جميع أنواع السيئات، والأخلاق الدنيئة ومنبعها، كلمتان، اثنتان، أو جملتان فقط:

الكلمة الأولى: إذا شبعت أنا فلا أُبالي إن مات غيري من الجوع.

الكلمة الثانية: تحمَّلْ أنت المشاق لأجل راحتى.. إعملْ أنت لآكل أنا، لك المشقة وعليَّ الأكل.

والدواء الشافي الذي يستأصل شافة السُّم القاتلِ في الكلمة الأولى هو: الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام.

والذي يَجْتَثُّ عِرْقَ شجرة الزّقّوم المندرجة في الكلمة الثانية هو: تحريم الربا، فان كانت البشرية تريد صلاحا وحياة كريمة فعليها فرض الزكاة، ورفع الربا" .[67]

9 ـ العولمة بين السلب والإيجاب

وعلى الرغم من هذه السلبيات التي تحملها العولمة المعاصرة إلى العالم الإسلامي إلاّ أنَّها لا تخلو من إيجابيات

66 النورسي بتصرف قليل – انظر اللوامع ص 851 من الكلمات

67 النورسي بتصرف قليل – انظر اللوامع ص 851 من الكلمات

يمكن أن تخدم الجوانب الروحية والحضارية لهذا العالم بما تتيحه من فرص نادرة لعرض آرائه وأفكاره ومُعْتَقَدِهِ عن الكون والحياة والإنسان عبر التقنيات الهائلة من وسائط النقل والاتصال المقروءة والمسموعة والمصورة، وتصحيح الكثير من الأوهام والأخطاء التي كان ما يُسَمَّى بـ "العالم المتحضر" قد كونها عنه، وهذه نعمة عظيمة ربما ستجعل – في خاتمة المطاف – السحر العولمي ينقلب على الساحر نفسه.

فالعولمية الإسلامية – إذا صحّ التعبير – يمكن أن تسهم وبالوسائط نفسها التي تستخدمها العولمة الغربية في مخاطبة "العقل الغربي" وكسبه إلى جانب الإسلام، وكما توقع النورسي له ذلك فهو الذي قال وقبل ما يقرب من قرن من الزمن:

"إنّ أوربا حبلى بجنين الإسلام، وستلد يوما ما.." ولعلَّ هذا اليوم قد اقترب وآن أوانُهُ.

وهذا الكلام لم يَقُلْه النورسي في فورة حماس عابرة، ولا في سورةٍ عاطفيةٍ أو مضت لحظةً ثم انطفأت، لا، بل هو يعنى ما يقول، لكونه على اطلاع واسع على توجّهات الفكر الأوربي عموما، وعلى ذكاء هذا الفكر وشغفه بالحق إذا كان أصيلاً ونظيفاً ولم تتلاعب به الأهواء، أو يطمس على بصيرته التعصب المقيت.

وهو يدرك كذلك أنّ الإسلام هو الدين الذي أنـزله ربُّ العالمين للعالمين قاطبةً، ليختم به الأديان على وجه الأرض،

وأنه لا دين بعده، فهو دين البشرية في حاضر زمانها وفي مستقبله، وأنَّ الساعة ستقوم له ولأجله، وعليه ستقوم قيامة الإنسان، وإنَّ الآخرة في قبضته وتحت جناحيه، فمنْ ليس له حظٌ منه (أي من الإسلام) فلا حظَّ له كذلك منها (أي من الآخرة).

والنورسي واثقٌ بأن عقل الإسلام العميق والكبير قادرٌ على التقاء التوجهات الفكرية والحضارية للفكر الأوربي ذي المنابت الإيمانية الأصيلة، وأنَّ استيعاب هذا الفكر وتفهمه والتعرّف على جوانبه الإيمانية وإن كان واجبا إيمانياً تفرضه وحده الإيمان بربٍ واحدٍ والهٍ واحدٍ فهو كذلك واجبٌ إنساني ملحٌ يخدم مصلحة البشرية، ومصلحة شعوبها التي يهمها العيش بسلام بعضها مع البعض الآخر، وما يسمى اليوم بـ "حوار الحضارات" التفاهمي والتصالحي كان **النورسي** قد أشار إليه وتنبأ بوقوعه قبل ما يقرب من قرن من الزمن.

وحوار الثقافات في عصر "العولمة" هذا، حيث تنتقل "العولمة" بسرعة خاطفة – سرعة انتقال عرش بلقيس إلى ديوان سليمان عليه السلام قبل أن يرتدَّ إليه طرفه – وتدور من أقصى العالم إلى أقصاه، يمكن أن يشكل منعطفاً تاريخياً للعقل الغربي، وذلك لسهولة حصوله على حقائق الإسلام كما هي ومن مصادر إسلامية متخصصة، ليس بالضرورة من أجل أن يتحول هذا العقل إلى الإسلام ويدين به بين عشية وضحاها، ولكن من أجل – على أقل تقدير – تخفيف غُلوَاءِ العداء له،

فكلما زادت معرفة الغرب بالإسلام قلَّ عداءه له على قاعدة **"دعني لا أجهلك كي لا أعاديك"**.

فالكلمة مفتاح مجرّبُ لمغاليق العقول، والمعبر الذي تعبر من فوقه المعارف والثقافات بين البلدان والقارات، والإنسان كان وما يزال أسير الكلمة، وفي قبضتها، تأخذه حيث تشاء وتوجهه أنَّى تريد، ولقد خَرَّ سُجَّداً جبابرة الكلمة من بلغاء العربية للكلمة القرآنية وجثوا أمامها خاشعين مستسلمين مُسَلِّمين بعجزهم وقصورهم عن الإتيان بمثلها ولو اجتمعوا لها وتظاهروا عليها.

وبالكلمة خلق الله العالم، وأنشأ الإنسان، وأوجد الخلائق، وبها يحيى الضمير، وينهض الإيمان، ويستوي الحق على عرش القلوب، وصدق جلَّ شأنه القائل: **"ولو أنّما في الأرضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقلام والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبحرٍ ما نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ"** (لقمان:27)

وبالكلمة القرآنية المعجزة وحدها خاض "النورسي " كفاحاً مُضنياً ضدّ الملاحدة من أشقياء أمته وأشقياء العالم طُرَّاً، وسلك بها الطريق إلى القلوب والعقول ليجدد ما خَلُقَ من الإيمان وما رَثَّ من عقيدة التوحيد، وقد بقي طوال حياته يقول: إنّ القرآن هو أستاذه الذي يتلقى منه دروس الإيمان، وأنه ليس له بأستاذٍ غيره، وإنّ هذا العصر هو عصر الكلمة، ومن حقَّ القرآن المعجز أن يتربع على عرش هذا العصر وأن تكون له الصدارة بين كلمات البشر. فمعجزات الأنبياء عليهم

السلام، الحِسّية منها والمعنوية. والتي أشار إليها القرآن، وإن كان لها السبق الزمني على علوم البشرية وإنجازاتها الحضارية، غير إنها كانت في زمنها ومضات هاديةً وإشارات منبهة، وهي إرهاصات لما سيأتي به القابل من الزمان وكأنها تقول للبشرية بلسان الحال: هيّا أيها الإنسان تعلّمْ مني، وخُذْ الدّرسَ عني واستعمل عقلك وجهدك لكي تلحق بي، وتصل إلى ما وصلتُ إليه من خوارق في السماء والأرض والإنسان، كما يقول النورسي في مبحثه الخاص عن معجزات الأنبياء عليهم السلام، وهذا هو ما تحاوله البشرية اليوم من خلال إنجازاتها العلمية والتقَنِيّة.[68]

10 ـ المتغير البشري والثابت الإلهي

وأكثر القضايا إشغالاً لأذهان أصحاب الفكر في هذا العصر، والمستريبين منهم بخاصة، هي السؤال الآتي:

كيف يمكن معالجةُ إشكالات المُتَغَيّرِ البشري بالثابت الإلهي؟! وبعبارة أوضح كيف تستطيع ثوابت الدين اللحاق بمتغيراتِ الإنسان عبر أزمانه المتتابعة؟! وإذا كانت الحركة والتغير أُمَّ الوجود، وجوهر الحياة فأين هو مكان الدين منها وهو ما هو عليه من ثوابت ليس من الدين في شئ المَسَاس بها أو محاولة تغييرها؟!.

---

68 انظر الكلمات – المقام الثاني من الكلمة العشرين ص277-283

وعلى مثيري أمثال هذه الأسئلة ينطبق قوله تعالى: **"وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ"**، لأن جوهر الإنسان وماهيته ثابتة من الثوابت لا تتغير أبداً، صحيح أنه ينمو ويكبر ويتطور، ويكتشف ويخترع ويبدع، وينشئ الحضارات، ويُشيّد الصروح، وينطح السماء، ويبني الفضائيات، وينـزلُ على القمر، ويجول بين الأجرام، ويغُوصُ في الذرّة، إلا أنَّ ماهيتهُ الإنسانية، وجوهر "إنيَّته" وخويصة روحه، وعمق وجدانه، ثابتة من الثوابت لا يطالها التغيير والتبديل.

ولا يطال التغيير والتبديل كذلك أشواقه إلى الخلود، وشغفه بالغيب، وخوفه من الموت، وإشفاقه من القبر وما بعد القبر، لأنها من ثوابت الإنسان في كل زمان ومكان. وهذه الثوابت في الإنسان تقابلها ثوابت في الدين، لأن تنـزلات الأديان إنما هي في الأساس لتطمين أشواق الإنسان، ولتطمين إشفاقاته ومخاوفه، وهذا التطمين الذي يقدمه الدين للإنسان هو "العقيدة" كما اصطلح علماؤنا على تسميته، وهذا هو سِرُّ ثبات العقيدة وواحديتها عند جميع الأنبياء والمرسلين منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ρ.

أما شرائع هؤلاء الأنبياء عليهم السلام فتختلف باختلاف الأقوام، وباختلاف الأزمنة والأمكنة، وباختلاف النضوج العقلي والحضاري لديهم، ولهذا السبب فقد يرسل الله تعالى في زمن واحد عدة أنبياء إلى عدّة أقوام في أمكنة مختلفة، ولكل قوم شريعة خاصة بهم تبعا لمصالحهم الحياتية والمعاشية،

وهكذا ظلّتْ شرائع الأنبياء ينسخ بعضها بعضا، ويكمل بعضها بعضا على مدى أزمان متعاقبة حتى استوتْ وتكاملتْ وبلغت القِمَّة في النضوج في شريعة محمد ρ وذلك لبلوغ البشرية سُنَّ الرشد، بحيث تستطيع أن تجد في هذه الشريعة كفاء حاجاتها المستجدّة، واشكالاتها المتغيرة من عصر إلى عصر لسعتها ومرونتها وثروتها الفقهية التي لم يعرف تاريخ البشرية مثيلاً لها، ولأن باب الاجتهاد فيها مفتوح لا يوصد أبداً حتى قيام الساعة، ويَحْسُن بنا أن نتطرق إلى رأي **النورسي** في هذه الصدد، حيث قال:

"تتبدل الشرائع بتبدل العصور، وقد تأتي شرائع مختلفة، ويُرْسَلُ رُسُلٌ كرامٌ في عصر واحد حسب الأقوام وقد حدث هذا فعلاً.

أمّا بعد ختم النبوة، وبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم فلم يَعُدْ هناك حاجة إليى شريعة أخرى. لأن شريعته العظمى كافية ووافية لكل قوم في كلّ عصر.

أمّا جزئيات الأحكام غير المنصوص عليها التي تقتضى التبديل تبعا للظروف، فإن اجتهادات فقهاء المذاهب كفيلة بمعالجة التبديل، فكما تُبدّلُ الملابس باختلاف المواسم، وتُغيّرُ الأدوية حسب حاجة المرضى، كذلك تُبدَّلُ الشرائع حسب العصور، وتدور الأحكام وِفقَ استعدادات الأمم الفطرية لأن الأحكام الشرعية الفرعية تتبع الأحوال البشرية، وتأتي منسجمة معها وتصبح دواء لدائها. ففي زمن الأنبياء السابقين

عليهم السلام كانت الطبقات البشرية متباعدة بعضها عن بعض، مع ما فيهم من جفاء وشِدَّةٍ في السجايا، فكانوا أقرب ما يكونون إلى البداوة في الأفكار، لذا أتت الشرائع في تلك الأزمنة متباينة مختلفة مع موافقتها لأحوالهم وانسجامها مع أوضاعهم، حتى لقد أتى أنبياء متعددون بشرائع مختلفة في منطقة واحدة وفي عصر واحد.

ولكن بمجيء خاتم النبيين وهو نبيّ آخر الزمان ρ، تكاملت البشرية وكأنها تَرَقّتْ من مرحلة الدراسة الابتدائية فالثانوية إلى مرحلة الدراسة العالية، وأصبحت أهلا لأن تتلقى درسا واحداً وتنصت إلى مُعَلّمٍ واحدٍ، وتعمل بشريعة واحدة، فرغم كثرة الاختلافات لم تَعُدْ هناك حاجة إلى شرائع عِدّة، ولا ضرورة إلى معلمين عديدين.

ولكن لعجز البشرية من أن تصل جميعا إلى مستوى واحد، وعدم تمكنها من السير على نمط واحد في حياتها الاجتماعية فقد تعدّدَتْ المذاهب الفقهية في الفروع.

فلو تمكنت البشرية –بأكثريتها المطلقة- أن تحيا حياة اجتماعية واحدة، وأصبحت في مستوى واحد، فحينئذٍ يمكن أن تتوحد المذاهب.

ولكن مثلما لا تسمح أحوال العالم، وطبائع الناس ببلوغ تلك الحالة، فإنَّ المذاهب تبعاً لذلك لا تكون واحدة.

فإن قلتَ: إنَّ الحقَّ واحدٌ، فكيف يمكن أن تكون الأحكام مختلفة للمذاهب الأربعة، ومذهب الإثني عشر حقاً؟

الجواب: يأخذ الماء أحكاماً خمسة مختلفة حسب أذواق المرضى وأحوالهم المختلفة: فهو دواء لمريض حسب مرضه، أي تناوله واجبٌ عليه طبَّاً. وقد يُسَبّبُ ضرراً لمريض آخر فهو كالسُّم له، أي يُحْرَمُ عليه طباً، وقد يولد ضرراً أقل لمريضٍ آخر فهو إذن مكروه له طلباً، وقد يكون نافعاً لآخر من دون أن يضره، فيُسَنُّ له طباً، وقد لا يَضُرُّ آخر ولا ينفعه فهو مباح له طباً، فليهناً بشربه.!

إنَّ الحق قد تعدّد هنا، فالأقسام الخمسة كلها حقٌ، فهل يصُحُ أن تقول: إنّ الماء علاجٌ لا غير، أو واجبٌ فحسب، وليس له حكم آخر؟!

وهكذا بمثل ما سبق، تتغير الأحكام الإلهية بِسَوْقٍ من الحكمة الإلهية وحسب التابعين لها، فهي تتبدل حقاً، وتبقى حقاً، ويكون كل حكم منها حقاً، ويصبح مصلحة."[69]

11 - النظر الشمولي عند النورسي

وإحدى خصائص النورسي الفكرية النظر الشمولي الجامع المُوَحِدُ، فيرى برؤية القرآن ناموسا ألهياً واحدا ينتظم جسد الوجود، وشريعة واحدة تهيمن على الكون وتشد مفاصله، والإنسان إنما هو نقطة الدائرة الكونية، والغاية من الخلق الكوني، ومن هنا لا ينفك القرآن يحث المسلم على محاورة

---

69 الكلمات – الكلمة السابعة والعشرون – ص 569-570،

الكون، والإصغاء إلى ما يقوله وإنْ يمكث غير بعيد منه، يتعرّف على شريعته ويتدارسها ويتساوق معها، ولا يناكفها أو يغالبها لأنه لا محالة تغلبه. وهي بالتالي تبقى في خدمة معارف الإنسان الإلهية، تعززها وتقويها، وتزيد الإيمان بأحقيتها، أضف إلى ذلك أن المادة الكونية هي الأساس في كل ما وصلت إليه البشرية من علم وقوة وتفوق في حاليها من الحرب والسلم يقول "النورسي ":

"الشريعة اثنتان:

إحداها: هي الشريعة المعروفة لنا التي تنظم أفعال وأحوال الإنسان، ذلك العالم الأصغر، والتي هي من صفة الكلام.

الثانية: هي الشريعة الكبرى الفطرية، التي تنظم حركات وسكنات العالم. ذلك الإنسان الأكبر والتي تأتي من صفة الإرادة. وقد يطلق عليها خطأ اسم "الطبيعة" والملائكة أمةٌ عظيمة هم حملة الأوامر التكوينية وممثلوها وممتثلوها، تلك الأوامر الآتية من صفة الإرادة والتي تسمَّى بالشريعة الفطرية".[70]

وهذه المعرفة الكونية لا يمكن اكتسابها إلا من خلال إنسان ذكي ألمعي كثير الانتباه والانشداه، مُسْتَوفز الحواس، مرهف النظر خارقه، يرى في العادي غير العادي، وفي المألوف غير المألوف لا يرضى بالهوية دون الماهية، ولا بالصدف دون

---

70 المكتوبات ص 613

الجوهر، ولا بالقشر دون اللب، ولا بالظاهر دون الباطن، ولا بالسطوح دون الأعماق، فعلى أكتاف أمثال هذا الإنسان إزدهرت العلوم وقامت الحضارات، وهذا ما كان يريده **النورسي** من المسلم المعاصر أن يكون عليه. وإذا كانت هذه الصفات المذكورة آنفا هي من أولويات العقل العلمي، فهي كذلك من أولويات العقل الفلسفي، فالباعث في كلا العقلين واحد في الأساس، وهذا هو سر الجمع بين الفلسفة والطب عند كثير من رموز حضارتنا في القرون الوسطى حيث ما من طبيب في ذلك الوقت إلا وله قسط معلوم من الفلسفة، وما من فيلسوف إلا وله نصيب قلَّ أو كثر من الطب، قبل أن تتبلور المعارف ويستقل بعضها عن البعض الآخر ويصير لكل علم من يتفرغ له ولا يتجاوزه إلى غيره.

12 ـ الحضارة الإسلامية

والحضارة الإسلامية بكل ما تحويه من كنوز المعارف والثقافات، وما بَنَتْهُ من صروح، إنَّما هي حصيلة تجسدات روح الأمة وتشكلات خيالها السامي، وتفجرات عقلها المؤمن الحي، وتعشق ذاتها للحق، وشغف وجدانها بالجمال والجلال.

ولكن حين هَزُلَ هذا الوهج الحضاري، وخفتت أنواره، وجفَّ زيتُ اشتعاله وكاد ينطفئ ويظلم ولم يبق ما يذكر به إلاّ ذبالة مرتعشة ترتعش على وَجلٍ، وتوشك أن تنطفئ بأضعف نفخة من بين شفتي عصرها البئيس.. نعم حين حلَّ هذا الانكفاء الروحي المأساوي بالأمة، انبعث فجأة من هذه الذُبالة

الراعشة سنا برقٍ ساطع أضاء كيانها حتى الأعماق، وطلع عليها الإمام الغزالي بكتابه الجامع الأم "إحياء علوم الدين" هذا المعمار الروحي. الإيماني العتيد، الذي لجأتْ إليه الأمة واحتمت، بأفكاره مما كان يَعُجُّ به النصف الثاني من القرن الرابع من صنوف الأعداء اللاّدينيّن، من زنادقة وفسقة وشعوبيين وباطنيين وفلاسفة ملحدين.

فما أكثر أوجُهَ الشبه بين القرن الرابع والقرن الرابع عشر من حيث الانكفاء الروحي، والضمور الإيماني الذي حاق بالأمة، وما أدقّ الشبه بين تلك الأصناف والنوعيات التي كادت للإسلام في القرن الرابع والتي تكيد له اليوم.

وإذا كان "الإحياء" قد فعل فعله في عصمة الملايين من المسلمين من السقوط في أوحال اللادينية والتشككية، فإنّ "رسائل النور" النورسية تفعل فعلها اليوم في معاونة الملايين من المسلمين على المحافظة على دينهم وإيمانهم ومواجهة تحديات عصرهم التشكيكية والتكفيرية وكما كان "الإحياء" في عصره معلماً ومناراً إيمانياً يهدي الحيارى، وينير للتائهين. فان "رسائل النور" تقوم اليوم مقام "الإحياء" في أداء هذه المهمة، فتومض وتضئ وتنير للأجيال الحاضرة والآتية، لا سيما وان الزمن قد دار وكما بدأ عاد، وخرجت البشرية من بين زحام العلوم والفلسفات شاحبة متعبة منهكة القوى، وهي أشد عطشاً من أي وقت مضى إلى أنداء الروح وسُقيا السَّماء، ودلائل ذلك بَيِّنةٌ فيما تتناقله الأنباء

عن حُمّى الاتجاه إلى الدين بشكل لم تعرف له الأزمان السابقة نظيراً، والى هذا اليوم الفاصل والحاسم بين القرون كان يشير **النورسي** حين تنبأ بأنَّ أجيال الآتي من الزمان ستكون أكثر فهماً له، وأعظم إذعاناً لفكره، وأصدق وفاءً لذكراه، وإنه لا يريد منها فيما إذا وقفت على قبره سوى أن تترحم عليه وتقرأ له الفاتحة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين